سردية

إبراهيم نصر الله

الأمواج البرّية



الأمواج البرّية

الأمواج البرّيّة / سرديّة
إبراهيم نصر الله
الطبعة العربيّة الخامسة ، ١٩٩٩

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، ٥٤٦٠ ـ ١١ ، العنوان البرقي :موكيّالي ،
هاتفاكس : ٨٠٧٩٠٠ / ٨٠٧٩٠١
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب : ٩١٥٧ ؛ هاتف ٥٦٠٥٤٣٢ ؛ هاتفاكس : ٥٦٨٥٥٠١
E - mail : mkayyali@nets.com.jo
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
ستمك سيسو ®
صورة الغلاف :
إبراهيم نصر الله
الصفّ الضوئي :
دار الشروق ، عمّان

إبراهيم نصر الله

الأمواج البرّيّة

سرديّة

سحابة الظل المجففة

استراحة من الواح الاسبست واعمدة الحديد .. مقاعد خشبية تفضي الى الجمر رغم سحابة الظل المجففة التي تربض فوقها .. حقائب عائدة من غربات كثيرة .. وهجرات ، كل واحدة منها تحمل في طياتها بشراً وحكايات ، علب عصير متناثرة .. ظهيرة مبكرة تتوعد الفجر ، وتوقد بكاء الاطفال ونـزق الشيـوخ . الوقت رمل ملتهب ملتصق بـالاصابـع والروح .. والمدى رواسي رمادية عطشى ..

كل تلك الاشياء تتكـدس فوق صـدور الناس .. عقـارب الساعـة تتفجر بفعل ذلك الاحساس العميق بالترقب الذي يشرع كل نـوافذه عبـر جدران لا مرئية .. يصطدم الجميع بها ..

منذ الفجر .. تسرب البشر من شقوق البيوت والصحاري وانحدروا مثل الجـداول المتعبة نحـو « الجسر » .. وهنـاك تجمعـوا في انتـظار من نـوع آخر .. يفضي الى حس عميق بالحـزن : فجأة تعبـر نسمةٌ صـدراً فيصوب جندي بندقيته الالية آمراً باعادة النسمة الى الافق من جديد .

ها « جسر العودة » وصدى فيروز ، وعشرون عاما .. اربعـون .. يتغير

فيها معنى الاغنية في كل لحظة .. وكل يغنيها بطريقته التي يريد .. وتظل فيروز اختصار الحلم في اغنية ..

ويظل الناس يد الحلم في كلماتها ..

يتوقف « البحري » الان وسط حشد من كل الاعمار .. وجوه متشابهة كأنها قُدتْ من جذع زيتونة واحدة .. وجوه تشبه مدنا لم يرها .. مدناً لا ينام موجها .. ولا تنطفىء زرقة سواحلها .

والبحري قال له ابوه : ادعوك البحري لانك ستصل البحر وتراه بعينيّ .

* * *

يا ابا محمد : قلنا لك .. ليس المهم ان ترى البيت .. المهم كيف تراه .

ابو محمد : حاولت ان اراه كما ينبغي اربعين سنة .. نعم حاولت .. ولم استطع .. ولكن « البحري » اكد لي بثقة في ليلة ما ، انه راى عسقلان بعيني .. وبعين بندقيته ايضاً .

- ولكن الا يرضيك ان البحري رأى ما كنت تحلم برؤيته .

ابو محمد : ذلك يريحني .. يريحني فعلا ولكنني مشتاق الى رؤية البحري قرب « الصَبْرات » هناك .. يهيأ لي انه يرقد مغطى بدمه منذ ثمانية عشر عاماً ، وينتظرني لكي ارد على جسده عباءتي هذه وقلبي .

* * *

يستدير البحري بحقيبته الان .. كأنه خارج من غيبوبة .. حركة عينيه بدأت تصبح اكثر حزنا ، فالمشهد يعلو المشهد .. ثم يتسرب كل شيء عبر الدم .. تتوقف عيناه فجأة :

امرأة في الستين .. جميلة .. يانعة .. بثوب مطرز مشرع لاستقبال وطن كامل .

فتاة بجانبها : جميل ثوبك يا خالتي .. من خاطه لك ؟

المرأة : انا .. وحدي .. منذ - لست ادري - وانا اخيط اثوابي .. اتذكر كيف غزلت جهاز عرسي في تلك الايام بسهولة .. ولكن هذا الثوب كان يلزمه الكثير من الوقت .. فنظري اصبح ضعيفاً الان .

ثم نظرت الى الصبية بزهو وقالت :

انت لم تري غير الصدر والاكمام ولكن انظري .. وقفت فرحة .. واعطت ظهرها لها .. ودَعَتْها بلهفة :

انظري هنا .. كنت اخيطه وأرى ان كل غرزة فيه خطوة سأخطوها على ارض « العباسية » واحياناً كنت اشعر انني اضع غرزة مقابل كل ذكرى عشتها هناك .

الصبية : منذ سنتين لم اكن ادرك هذا الجمال .. الى ان رأيت الجندي الاسرائيلي يمزق ثوباً كانت امي قد ارسلته لخالتي في عمان .

كان الجندي يمزقه بحجة البحث عن رسائل سرية. لحظتها احسست انني اشهد مذبحة بكاملها .. مذبحة .. مذبحة .

* * *

اصوات رشاشات .. طائرة تخترق حاجز الصوت .. قذائف متلاحقة . الارض تدور ، والنباتات تلتصق ببعضها .. تتبعثر .. صرخات .. اصوات جنود يوزعون الشتائم بلكنات .. عبرية وانجليزية والمانية وروسية و ..، وتوحدهم لغة القتل .. صوت طائرة مروحية يقترب ، ثم تشق الطائرة صوتها وتحط في غموض اللحظة .. واطلالة الدم من كل مكان ..

الصبية تمسك برأسها .. وكأنه سيقفز ويتلاشى في فضاء الدخان ، مخلفاً كتفين مذبوحتين.. واياما تعد الارض بربيع. المرأة: اسم الله عليك يا بنتي .

صوت الطائرة المروحية يشتد ، الفتاة تهتز . ترى الحرير الاحمر للثوب فوق القماش الاسود الحالك بركة دم .. الثوب يتمزق وعيناها مسمرتان على جثة طفل صغير .. اصوات الجنود تبتعد .. خليط لكنات تبدأ بمخرج

الرصـــاصة .. وتنتهي في جثـة كانت قبـل دقائق خـارج كل مـا يمتُّ للموت بصلة .. الاصـوات تتلاشى .. وتنقشـع سحابـة غبـار .. الصبيـة تستعيـد نفسها .

يا خالتي : الان اصبـح عمري ستـا وعشرين سنـة .. ولكنني لا اعرف لماذا يموت بعضنا ، ويظل البعض الآخر على قيد الحزن .

كـان يمكن ان اكـون اخي الصغيـر « البحـري » لقـد اسمـاه ابي البحري .. لانه كان يريد ان يرى بعينيه البحر .. هل ادركوا ذلك فقتلوه .

فجأة تتنبه لوجود الرضيع بين يديها ..

المرأة : ابنك هذا ؟

الصبية : نعم .. واسمه البحري .

الأزهار بعد خمس حروب

صوت من بعيد يجيء .. « البحري » ينتصب على قدميه .. يسير .. يكتشف انه نسي الحقيبة .. يعود .. تنسل عيناه بهدوء موجة حالمة باتجاه الثوب .. تتصفح تفاصيله .. تستقر على حمامة .. لحظات وتتلاشى باجنحتها وكأن عينيه شربتا جناحيها ..

البحري « لنفسه » : لم تزل امي تملك القدرة بعد خمس حروب وثلاثين مجزرة .. لم تزل تملك القدرة على تطريز الازهار على ثوبها .. والحمام . مرة قلت لها : كأن القماش الاسود ارض ، وكأنك تزرعينها بالأزرق والاحمر والابيض وكل الوان الدنيا ، ليتلاشى الاسود وتظل الالوان الاخرى .

يستدير حيث يولي وجهه شطر قمم صاعدة ملتهبة .. وقد استقرت كجمرة كامنة خلف طبقة رمادية تعريها الريح ..

امه تتحرك الآن في باحة المنزل امامه ، يختفي وجهها خلف غطاء رأسها المغسول وهي تثبته على الحبل ليجف ، فيبدو وجهها وكأنه طالع من ضباب .. تحرك الريح الغطاء على الحبل يتموج .. ويرى الريح تحمل وجه

امه للبعيد .. امه شاردة :

ـ كنت احب ان امضي الى هناك .. واصعد الجبال المحيطة بسهل « اللبّن » .. اصعد حتى امسك بطفولتي المجللة بالزهر والشقاء والشقاوة ايضاً ..

امه تركض الان .. سهل « اللبن » خلفها يتسع كلما بدأت بالصعود اكثر .. طفلة صغيرة تتضاحك وتركض امامها .

ـ سأمسكك مهما ابتعدت .

الطفلة يزداد ضحكها فرحاً .. تتعثر .. تصرخ فزعة من ان يلقى عليها القبض .

المرأة تلهث.. والطفلة تصل قمة الجبل .. تتوقف لحظة .. تبدأ يداها تأخذان شكلاً غريباً .. يتضح فجأة انه شكل جناحي زغلول لم يكتسيا بالريش بعد .. يبدأ الريش بالنمو .. المرأة تتوقف دهشة ..

الريش يكسو جسد الفتاة .. يتطاير فستانها في الهواء .. وجهها يأخذ شكل رأس طائر حسون .. ثم بضربة واحدة تطير .

ـ امي !!

الام : لا تحدثني طويلاً .. اذهب هناك وقل لي كيف اصبحت طفولتي الان .

***

شرطي : الى الباص .

يتدافع الناس .. ثم ينتظمون في صف طويل .. يذهب آخره في فراغ عميق ، ويصعد اوله درجات الحافلة .

امرأة .. طفل .. شيخ .. حقائب .

نظرة من داخل الحافلة الى الساحة والمشهد :

استراحة من الواح الاسبست واعمدة الحديد ، مقاعد خشبية تفضي الى الجمر رغم سحابة الظل المجففة التي تربض فوقها .. حقائب .. علب عصير متناثرة .. ذباب ثقيل .. وظهيرة مبكرة .. والناس ينتشرون في الحوارات .

ـ يا ابا محمد ..

والحافلة تبتعد الحافلة تتجه الى الجسر .. لا شيء يؤكد العودة سوى اطلالة الحقائب فوق ظهرها .

ام محمد تتأمل التطريز الدقيق على الثوب .. ولكن من يستطيع ان يرى الان بوضوح ان كانت داخل الحافلة ام في الاستراحة.. وتعبر الاغنية..

في الازقة حيث تنام الظلالُ
على كلمات الاناشيد في الرحلة المدرسيةْ
يمتدُ يومكِ عبر البيوتِ
غناء لسيدة في الفناء
تخيطُ على ثوبها صورةً للحمامِ
واخرى لبارودة ساحلية .

منذ الان لن يستطيع البحري ان يرفع عينيه عن طيور الحمام التي تغطي القماش الاسود بهدوء فذ .. « وتأتي الاغنية » .

في الطريق الى السوق تحمل سلتها
والصغير على كتفيها يداعب عِرقَ الحمامِ
وتمضي الى السوقِ
يرنو الصغيرُ لفاكهةٍ في الصناديقِ
تزجرهُ
تتجولُ
تبتاعُ في اخر الامر ارغفةً وتعود .

فجأة يكاد ينطلق النداء من بين شفتيه : أُمي

ولكن قـرقعة الجســر الخشبي تحت عجلات الحافلة تعيده الى وعيه من جديد ..

الحافلة تتعثر .. النهر ينساب شاحباً ويندس بين اوراق الدفلى بخجل .

«وتأتي الاغنية » .

في الازقة حيث تموتُ الظلالُ
تفتشُ عن طفلها الغائبِ
تتفقد عِرقَ الحمام على كتفيها
ولا تجد البندقية .

والطفل يوشك ثانيـة ان يصرخ : أمي .. هـذا انا .. ويصمت البحـري ثانية .

ألم أقتلك منذ عامين

اشجار متناثرة .. موقع عسكري متقدم .. علم بنجمة سداسية ، حـافلة تتحرك .. فتتابعها عين رشاش خارجة من خلف حاجز تـرابي مرتفـع مغطى بـاكياس الرمـل والعوارض الحـديديـة ، تتـوقف الـحـافلة .. فتـزداد عين الرشاش تحديقا فيها بحذر كامل .

يصعد جندي الى الحـافلة الان .. سلاحـه في يده .. سـلاح استخدم كثيراً .. قديم . اما الجندي فلا يستطيع احد ان يعرف من أي بلاد الدنيـا جاء او في اي مجزرة تلقى علومه العسكرية :

- ربما من دير ياسين .

- لا .. عمره اقل من ذلك .

- ربما من بيروت .. نعم ربما جاء من بيروت .

- او قرى الجولان .. او من مخيم بلاطة ..

* * *

جندي يطلق النار .. نفس الجندي الذي في الحـافلة .. والمشـهد مخيم

كامل . .وطفل في السادسة من عمره يسقط الان .

* * *

الجندي يجمع التصاريح .. يحدق في وجوه الركـاب ، الجندي يتـوقف عند « البحري » يتبادلان نظرات ثابتة .

الجندي : الم اقتلك في مظاهرة قبل عامين في مخيم الدهيشة ؟!!

البحري : اظن انك قتلتني فعلاً .. ولكن لم يحدث ذلك في الدهيشة. كان قبل ذلك بزمن طويل ..

الجندي : اين ؟ !

البحري : في كفر قاسم .

الجندي : ولكنني .. ولكنني لم اكن هناك .

البحري : عجيب .. انك تشبهه كثيراً ولكن يخلق من الشبه مليونين !!!

* * *

الحافلة تتحرك والجندي يختفي .. تنحدر ثم تصعد .. تتوقف امام مركز الحدود « الاسرائيلي » .

مجندات .. جنود ..

عائدون الى وطنهم .

حقائب مبقورة البطون ..

ملابس مبعثرة ..

والبنادق كثيرة .

نظرات يقظة متبادلة بين ركاب الحـافلة والجنود .. نـظرات حقد معلنـة رغم كل محاولات اخفائها .

جندي للسائق : اوقف محرك الحافلة .

السائق يمتثل للأمر العسكري .

* * *

الوجوه داخل الحافلة تنز عرقاً .. الاطفال فصلُ بكـاء حاد ، وقف بعض الرجال في الممر الضيق بين مقاعد الحافلة .. بعد قليل يكتشفون ان الهواء الساخن يطبخ ادمغتهم .. يعودون الى مقاعدهم واحداً واحداً ..

رجل في الخمسين يرتدي قمبازاً .. حطة وعقالا يهمس : اظننا لن نبقى احياء بعد دقائق .

امرأة : يريدون قتلنا خنقاً داخل الحافلة .

صوت : هذه امنيتهم .. الا يبقى منا احد .

امرأة : ولكنهم لن يستطيعوا .

* * *

جندي في الفراش .. والده بجانبه . نفس الجندي الذي صعد الحـافلة ليجمع التصاريح « شلومو » .

الاب : كـان يجب ان نقضي عليهم كلهم عام ٤٨ .. لو فعـل كل منـا ما كـان يجب ان يفعله لما شق جنبـك نصـل ذلك الخنجـر اللعين .. « بحنق » نعم .. كان يجب ان نبيدهم منذ ذلك الوقت .

هناك رضيع .. هناك استنفار

وجه احد الجنود القريبين من باب الحافلة يحتشد باحتقان دموي .. يفك الزر الاخير في قميصه .. الان .. صدره معرض للهواء ، يعم احتقان اكثر دموية كل اجزائه .

الآن يبدأ الهواء بالاحتراق داخل الحافلة .. تتصاعد السنته الدخانية تدريجياً .. السائق يفقد الصبر .. وهو يحدق في وجوه الركاب ويدوي فيه صراخ الاطفال .. فجأة يدير محرك الحافلة .. فينطلق الهواء من مكيفاتها ليبدد الجمر ..

الجندي المحتقن في الاسفل ينفجر .. يعود المحرك الى صمته بعد زمن .. وقد اصبح ظل الشجرة الهائلة الرابضة في باحة عنابر التفتيش يغطي جزءاً من الحافلة .. يصرخ جندي :

يلّا انزلوا

رجل في الخمسين يقول للركاب : الاطفال والنساء اولاً .. الاطفال والنساء ..

« كأن الحافلة مركب يغرق »

ويواصل : النساء والأطفال اولاً .. الاطفال تستجمع الاجساد بقاياها .. تنزلق باتجاه الباب ، ثم الى ايدي الجنود والمجندات التي تتصفح منحنيات الاجساد بدقة ..... قبل ان تسلمها لجهاز التفتيش الالكتروني ذي الباب القوسي ليكمل المهمة .. في الباحة الترابية تحت ظل الشجرة الهائلة ..

تعبر امرأة سمينة البوابة الالكترونية .. ينطلق جرس الانذار .. تأمرها مجندة شابة ـ تتدلى قبعتها بكسل على ظهرها ـ بالعودة واخراج كل ما في ثيابها .

تعود .. تخرج كل شيء .. تعبر البوابة .. يدوي جرس الانذار ثانية .. تأمرها المجندة بالعودة .. تعود .

يتعب جرس الانذار او يعتاد في المرة الثالثة .. يظل صامتاً .

رجل في الخمسين يجتاز البوابة الالكترونية. يتكرر المشهد : دائماً ينطلق جهاز الانذار .. رجل .. امرأة .. طفل .. رجل .. فتى ..

صبية تحمل رضيعها .. تجتاز الباب الالكتروني .. ينطلق جرس الانذار .. تأمرها المجندة ان تعود .. ويشاركها جندي أخر اصدار الأوامر من بعيد .. تعود .. تقلب ثيابها .. تبحث بهدوء ..

في الهواء المقيد ، الذين تم تفتيشهم يأخذون مقاعدهم في الظل بانتظار الانتهاء من تفتيش الباقين ، عصافير الدوري تتقافز بألفة تحت اقدام « العائدين » وقد استعادت طمأنينتها .. كأنها تقول لأولئك الساهمين على مقاعد الخشب القاسي : اعرفكم .

الصبية تحمل الرضيع وتدخل ثانية قوس الالكترون .. فينطلق جرس الانذار ..

المجندة تفقد اعصابها الان .

تأمرها : ضعي الرضيع هناك مع حاجياتك ثم مري عبر الجهاز وحدك .

الصبية تمتثل للامر .. فتمر عبر الجهاز وحيدة من رضيعها .

الرضيــع الذي كــان يبكي طوال الوقت تــوقف فجــأة فعمَّ الصمت .. وعندما امتدت الاعناق لاستطلاع ما يحدث ، كان الرضيع يحدق في الوجوه دهشا اكثر منهم ..

الصبيــة تجتاز البـاب القــوسي وحيـدة .. الجـرس غـارق في صمته. المجندة وقد قفزت معلنة اكتشافها : الرضيع هو السبب اذن .

وتقدمت نحوه وحدقت فيه .

« بينها وبين نفسها » : لعل المرأة اخفت سلاحاً داخل ثيابه .. ولكن ما الذي يمكن ان تخفيه في ثياب رضيع ؟!..

ارتجفت فزعة .. ولكن لعله ..

المجندة تعبر البوابة الالكترونية حاملة الرضيع .. يـدوي الجرس من جديد .

تصرخ المجندة : انزعي ثياب ابنك. تقترب الصبية بثقة .. تنتـزع ثياب الطفـل .. الآن يستلقي عاريـا تمامـاً كرأس حـربة ، كـل الوجـوه تتحلق .. والعيون تسمرت فوق ملامـح الطفل .. خليـط عجيب من نظرات الكـره التي يطلقها الجنود .. فتردها نظرات المحبة والترقب الحذر للعائدين .

المجندة تنزع كل ما عليهـا من حديـد .. تخطو بـاتجاه جـرس الانذار المتحفز حاملة الطفل .. الجميع يحدقون بها .. وهي تنظر حـولها مـرتبكة . كأنها تحمل بين يديها قنبلة موقوتة يمكن ان تنفجر في اية لحظة .

وما ان تخطو خطواتها الاولى عبر البوابـة .. حتى يدوي صــوت جرس الانذار عالياً .. المجندة تتراجع فزعة : في داخله شيء اذن .

يصرخ الجندي الذي جمّع التصاريح .

وتصرخ المجندة : خذه الى جهاز الاشعة يا « شلومو». يعم الصمت .. يبتعد الجنود قليلاً مولين ظهورهم للوجوه التي تحاول عبثاً كبت ابتساماتها .

عاصفة الحمام

عصفـورٌ دوري .. بشغب ساخـر وعجيب يعبـر البـوابـة الالكتـرونيـة كمصادفة مـدبرة ، شـارك جميع الركـاب في التحضير لهـا « يدوي جـرس الانذار » !! يهبط العصفـور بهدوء وقـد اجتازهـا ، في الجانب الاخـر تحت المقاعد يلتقط ذرات تراب وفتات خبز جاف ..

يلتفت جنـدي ومجنـدة .. نـظراتهم تتسـاءل .. ام محمـد تشيـر الى العصفور .

الجندي لا يصدق ذلك .

ولكنه يتوجه اليها صارخاً : انتِ دبرتِ كل ذلك .. انتِ .

كانت تتنقلُ نظرتُها
ما بين سكونِ النهرِ
وبين اليابسةِ
وكان الجسرُ الخشبيُّ هنالكَ لا يُوصل احداً
كان الجسرُ يداً تضمرُ

والأرضُ على بُعْدِذراعٍ تَناى
والمرأةُ كانتْ تتنقلُ
ما بينِ الضفةِ والضفةِ حزناً
لكن خيوطاً من عرسٍ سوفَ يجيءُ تُعَرِّشُ في عينيها
واشار الجنديُ اليها
كانت تَزهو بالثوبِ
امرأة في الستين
واجمل من ازهار الدنيا
يانعةٌ كالعشبِ على سطحِ البيتِ الأولِ
هادئةٌ كالساحلِ .. كالنصرْ
يا امرأة .. أنتِ
أشار الجندي اليها
والعالمُ يزحفُ كي يتفيا في ردنيها

« المرأة تحدق في الجندي .. تتحرك اجنحة الحمام المطرزة على الثوب كأنها فاتحة القيامة » .

صرخ الجنديُ كأنَّ
حمامَ الثوب الهادىء باغت رشاشاً في يده
فانتفضَ هنالك مذعوراً
ـ يا امرأة
كانت تتامل
من ابصرها بالثوب القرويِّ هنالكَ واثقةً بالزيتونِ .. وبالشمس الجالسةِ على اطراف أريحا
من ابصرها في تلكَ اللحظةِ كالحقلِ وكالمهرةِ
او موجةِ قمحٍ طائرةٍ
رفع الكفين الى الله
تمنى ان تصبحَ أُمَّهْ
كانتْ خمسةُ الافِ سنهْ

من سيرةَ امواج البحرِ هنالكَ فيها مُلتَمَّةْ
وانتفض حمامُ الثوب الهادىء ثانيةً .
فارتجفَ الجنديُّ القابع في الكاكي المبتلُّ بدم صغيرٍ من بيروتْ
وتقدمَ يتعثرُ
يا امراةْ
هذا الثوب لنا
واشار اليها
فانتفضتْ ازهار اللوز
وحوَّم في الافق حمامٌ
وانقضَّ على المدفع في يده
وابتسمتْ ام محمد
فارتجف الجنديُّ
تقدمَ اخرُ
فانتفضتْ مثل حمامِ الثوبِ
احاطوها بالاسلاكِ
فالتفتت باسمةً قالتْ
قبل تفجر عين النهرِ
وقبل تكوّنِ اول غيمٍ
كان الزهر اليفاً في هذا الارض
ولم يتسلحْ بعدُ بهذي الاشواكِ
خاطتْ أُمي هذا الثوب
فابتكر الله الغاباتِ الامواجَ
واطلق ضوء الافلاكِ
هذا الثوبُ لنا من قبلُ هبوبِ الريحِ
وبعدُ هبوبِ الدباباتِ
يا جنديّ ..
هذا ثوبُ فلسطينَ
وثوبكَ هذا الدَمُ الناشفُ في الكاكي .

يتراجع الجنود .. يختفي مركز الحدود .. البنادق .. الحافلة .. ولا يبقى سوى شجرة خضراء هائلة.. رضيع وامه .. و .. أم محمد وركاب الحافلة ..

« البحـري » ينفض رأسه بقـوة .. يفرك عينيـه .. يفتحهما بعـد هـدوء عميق يدوم عدة ثوان .. بنادق .. جنود .. مركز حدود و ..

* * *

داخل المركز .. حواجز خشبية مرتفعة تتقاطع فتشكل غرفاً صغيـرة .. زنـازين صغيرة للتفتيش .. وممـرات ضيقة ، تشبـه المتـاهـة ، تفضي الى قاعات بمقاعد خشبية .. وسقوف عـالية .. هيكليـة البناء تعيـدك الى اجواء المستودعات العملاقة في مراكز الجمـارك .. يافـطة صغيرة صفـراء مكتوب عليهـا باللون الاسـود « ايها الزائـر الكـريم !! في حـالة الشكـاوى يـرجى مراجعة ضابط امن الجسر » .. ويافطة اخرى تنصح بتسليم اي شيء حمّلك ايـاه اناس من الخـارج وتشك فيـه ، واخرى تـرحب بالقـادمين بحرارة في ارض « اسرائيل » !!

مرة ثالثـة ورابعة قبـل الدخول .. لا بـد من المرور عبـر بوابـة تفتيش الكترونية اخرى بعد تفتيش جسدي .. ثم .. الجميع في الداخل .

يطلق البحري عينيه تبحثان عن ام محمد .. لكنه لا يراها ، تزداد حركة عينيه قلقاً .. يبحث الآن بكل حواسه .

خارج المركز

كان يسمع رنة صوتها

ويلمس انعكاس الالوان الخارجة من ثوبها على سقف القاعة العالي .

يشم رائحة امه .. ويتذوق عنقود عنب .

كان يرى الشيء الذي لم يره بعد ..

كان يرى كل ما رآه واحبه وتمنى ان يعود في لحظةٍ معجزةٍ .

وصوت الجندي يعبر القاعة من لهيب الظهيرة :

هذا الثوب لنا ..

وتضحك ام محمد ..

فيسمع البحري قرقعة سلاح .. واصوات محركات الدبابات والعربات المصفحة .. كل ما يصل اليه من حركة ، يرسم له صورة كاملة لحصار ما .. غريب وشرس .

يحاول البحري الخروج .. الا ان حارس البوابة الالكترونية يمنعه .

ولكنه يلمح كل شيء لثانية واحدة .. ليس أكثر ، من فوق كتف الحارس الذي بدأ يدفعه باتجاه الداخل ..

والمشهد :

سيدة بثوبها المتفتح .. باسمة .. اربع دبابات .. وعدد من سيارات الجيب ، جنود يهرولون من كل الجهات .. بعضهم يغادر قاعة التفتيش الى الخارج .. فينظر العابرون الجسر في وجوه بعضهم بدهشة .. ام محمد داخل الحلقة .. اسلاك شائكة تتحلق حولها .. تبتسم ..

صوت طائرة مروحية يقترب. يدور في سماء الباحة الضيقة .. وتتوقف هناك بين السماء والارض كأنها مدلاة بخيط من كوكب وهمي ثابتة .. سوى هديرها الذي يشق الدقائق ..

الجميع في الداخل يرون الطائرة عبر الشبابيك الضيقة للقاعة الواسعة ..

تهبط الطائرة ويذهب كل شيء في الصمت .. يعود الجنود .. الى مواقعهم في الداخل .. وتعود قرقعة جنازير الدبابات .

لم يعد احد يستطيع ان يتنبأ بالذي حدث .. ولكن ام محمد لم تطل من البوابة الالكترونية للقاعة طيلة وجود الناس فيها ..

دولة في حاضنة بلاستيكية

العائدون وقوف الآن .. طابور يعبر باتجاه قاعة اخرى .. قبل الجلوس على مقاعدها يخلعون احذيتهم ويضعونها في صناديق بلاستيكية .

ـ كله بشلح هون كندرته .

وتختفي الاحذية .

فتاة تنتعل « زنوبة » خفيفة : نعل رقيق ، وقطعتا بلاستيك تشكلان الرقم « ٧ » مغروسة اطرافه داخل النعل ، تبقي « الزنوبة » في قدميها .

الجندي « شلومو » : وهذه كمان.

تخلعها بصمت .. تلقيها بأناقة ساخرة مبالغ فيها داخل الصندوق .. تختفي الاحذية .. يمضي بها « شلومو » الى غرفة تفتيش الكترونية اخرى !!!

الصبية لرضيعها : كأن دولتهم تعيش في غرفة العناية المركزة .. محاطة بكل هذه الاجهزة .. يخافون اذا تعطل احدها ان « تفرط » او لعلها تشبه حاضنة اطفال الخداج البلاستيكية .

* * *

ولكن المسافة بينك وبين الباحة الاخرى للمبنى حيث العربات تنتظر .. طويلة ..

اسماء بعض العائدين تأتي عبر مكبر صوت من تلك التي يستخدمها الجيش .. والاسماء تأتي بحروفها العربية مثقلة بلكنة عبرية .

البحري : لماذا ؟

طفل صغير يجيب بلا اكتراث : مخابرات !!

مقعد طويل وبجانبه آخر .. مجموعة من الشباب يتناثرون على المقاعد ..

هنا الشباب عنوان خطر
والطفولة خطر
واثواب الامهات كذلك ..
وبطونهن محشوة بالخطر ..

* * *

داخل غرفة التحقيق .. شخصان .. شابان انيقان .. لا يوحيان ابدا بأنهما قادران على القيام بهذه المهمة .. والبحري .

الاول : اين تسكن ؟

ـ عمان

الثاني : من اي بلد انت ؟

ـ من القدس

الثاني : هذه اول زيارة لك ؟

ـ الثانية .

الاول : متى كان ذلك ؟

ـ منذ زمن بعيد .. لانني لم اعد يومها !! ولم اعد اذكر .

الثاني : كيف ..

ـ كأني بقيت هناك قرب سور من نباتات الصبار .

الاول « بريبة » : ولكنك الآن هنا .

ـ من يستطيع ان يثبت ذلك ؟

الثاني : كأن اقتلك مثلاً ..

ـ ولكن هل لديك وسيلة غير القتل ؟

الأول : ماذا تعني ؟

ـ لا شيء بالتأكيد .. ولكن هل لديك وسيلة غير القتل لاثبات اننا الاثنان هنا ؟

الثاني « للأول » : يهلوس ربما

الاول : لك اقارب هنا ؟

ـ عمي وخالتي و .. وانا !!

الثاني : ماذا تعمل ؟

ـ مدرساً

الاول : واخوتك ماذا يعملون ؟

ـ مهن مختلفة

الاول : الاكبر منك .. ماذا يعمل ؟

ـ فنانا

الثاني : يرسم ؟

ـ يرسم !!

الاول : ماذا ؟

ـ زيتون .. عصافير .. بحار وبيوت قديمة .. رجال .. اطفال .. نساء ..

حياة .. يرسم الحياة .

الثاني : والذي أكبر منه .. ماذا يعمل ؟

ـ نجارا

الاول : كم عدد افراد الاسرة ؟

ـ ١٢ فرداً .. عشرة اخوة واخوات

الثاني : اسرة كبيرة .. لماذا ؟

ـ مرة سألت امي هذا السؤال .. كان ذلك منذ زمن بعيد .. بعد ان ولدتني بأيام هكذا يهيأ لي احياناً .. فقالت .. غداً تعرف

* * *

سيارات سرفيس تتوجه الى جنين .. رام الله .. نابلس .. طوباس .. قباطية .. الشهداء .

* * *

مشاهد تتداخل .. مثل جذور اشجار مختلفة تتقاطع في عمق الارض ، ولكنها تفضي في النهاية الى الخضرة .. راسمةً ملامح الوطن .

زيتون .. تين .. نخيل .. صفصاف ودوالٍ .. ياسمين .. اسوار حجرية .. رعاة اغنام .. وفلاحون .. محاريث .. ينابيع تشق الارض .. عناصر مختلفة تتلاصق لتُكوِّنَ صورة متكاملة تكملها تحليقة واثقة لصقر عال .

المذبحة .. تجتاز الماضي
وتنتظر شلومو في المنعطف التالي

نـابلس : باعـة الخضـار .. الدوار .. صعـود جرزيم .. عيـال .. باعـة الحلويات .. فتيات الجامعة العائدات من الكتب ..

جنود يعبرون الشوارع باتجاه السوق القديم .. يقظة كـاملة .. فأطفـال الآر بي جي ، عندما افتقدوا اسلحتهم اهتدوا ببساطة الى ان السلاح الذي لا يمكن ان يزول او ينتزع هو الحجارة. غداً ذكرى مذبحة صبرا وشاتيلا .

شلومو لرفيقه في العربة العسكرية :

- هذه الحركة الاعتيادية للناس .. لا تسر ، كأننـا نحن وحدنـا الذين نعرف ان غداً ذكرى صبرا وشاتيلا !!

- دائماً « هم » هكذا .. يخرجون علينا من طمأنينتنـا .. ثم .. ثم ان المساء لم يأت بعد .

- لقد قتل ولد عربي في مخيم بلاطة هذا الصباح .

- نشرة الاخبار تقول ان الجندي اطلق النار في الهواء ..

ـ نعم .. مثلما نفعل دائماً .

شلومو يعدل جلسته .. فيقرقع السلاح اثر اصطكاكه بحديد صندوق العربة العسكرية .. ويبدو حينها مدججاً بما يحمله اكثر مما يتصور انسان .

وفجأة يعود فيتذكر : نعم .. غدا ذكرى صبرا وشاتيلا .. لا نستطيع نسيان ذلك .. يجب ان لا ننسى الغد .. ولكن لماذا كل ذلك : المذبحة خلفنا فما الذي يجعلها تقفز وتنتظرنا في زاوية اليوم التالي .. الذي نتجاوزه يعود ليتجاوزنا .. كأننا لا نستطيع ان ننتهي من فعل شيء واحد .. واحد فقط .. ونقول هنا نضع نقطة .. وسطرا جديدا او صفحة جديدة .

عيناه تعودان الى الشارع بصحوة مفاجئة .. يربد وجهه .

« لنفسه » : مرة ثانية ابتعد وانسى انني هنا في نابلس ولست في « الون موريه». يتحسس سلاحه .

"رامبو" في صفوف الجيش

محكمة ..

محكمة اسرائيلية .. قضاة ، جنرالات ، حرس .. عساكر في الخارج واسلاك شائكة .

اسرائيلي يقف خلف حاجز المتهمين بيده حبل انيق يؤدي الى عنق كلب من فصيلة متميزة .

القلق يجلل الرجل بصفرة ما .. فالحكم سيصدر بعد قليل ..

الكلب واثق ويبدو مراعيا ومدركا لهيبة المحكمة العسكرية !!!

كبير القضاة يدلي بالحكم :

« انها المرة الأولى في تاريخ القضاء الاسرائيلي التي نوقع فيها عقوبة الاعدام » .

امرأة في وسط القاعة تصرخ عن غير ارادتها ، في حين يتمالك الرجل الواقف في قفص الاتهام نفسه ، سوى ارتجاف بسيط يبدو واضحاً اكثر في اهتزاز الحبل الذي يوصله بالكلب !!

القاضي معيداً ما قرأه : انها المرة الاولى في تاريخ القضاء الاسرائيلي التي نوقع فيها عقوبة الاعدام بكلب ، بعد ان عض سبعة اشخاص في عام واحد .. ولكن بما ان الكلب « رامبو » من فصيلة قوية وتتميز بالذكاء .. فاننا منحناه فرصة وحيدة تنقذ حياته .

« الرجل في قفص الاتهام يستعيد بعض حيويته .. امل يغزو عينيه والمرأة تستعيد وعيها .. والكلب يواصل صمته » .

القاضي « يواصل » : وهذه الفرصة تتمثل في ان يتم تجنيد هذا الكلب في صفوف الجيش الاسرائيلي !!

ابتهاج يعم القاعة .. لا يخلو من بعض الحزن على وجه الرجل الواقف في قفص الاتهام ، والمرأة في القاعة ، وهما يحسبان الآثار المترتبة على فراقهما لكلبهما المتميز .

القاضي : لقد كانت وزارة الصحة الاسرائيلية التي رفعت الدعوى بصفتها مدعية بالحق المدني ضد هذا الكلب ، قد عرضت حلاً وسطاً امام ما اثارته القضية من اصداء ، حيث اعلنت استعدادها للتنازل عن الحكم باعدام الكلب « رامبو » باعتباره خطراً عاماً ، اذا التحق هذا الكلب بالوحدات الخاصة التابعة للجيش الاسرائيلي العاملة في « المناطق المحررة » اذ يمكن في هذه الحالة ان يكون نزوعه للعض مفيداً للمجتمع !!

* * *

جنود مدججون بالاسلحة يعبرون الطرقات .. دوريات راجلة واخرى محمولة .. والسلاح محاولة القاتل لانتزاع الهواء من هدأة الرصيف ، والظل من امتداد القامات .

كل هذا السلاح !! كل نظرات الحقد هذه !! وكل هذه القبعات الحمر !! في شارع لا يتسع لمرور الكراهية !!

الناس يفتتحون يومهم بطيبتهم .. ويشرعون الصدور لخطوة الشمس في دمهم . والنهار قابل لبهجة التلاميذ وزهو الطالبات بجدائلهن .

الجنود يعبرون الطرقات .. وكل السلاح مسدد للحظة التالية .. حيث ترتفع الشمس وتهبط في « المنارة » .. كل هذا السلاح مسدد للماضي .. للحاضر لرام الله ... والمستقبل ... ولذا فان الجندي خارج الزمن ... خارج المكان ... وهو يدرك الان انه خارج كل شيء ... فالى اي مدى يستطيع ان يقبع في داخل ذاته الموحشة .

وحدها البندقية مؤنسته

والناس يفتتحون يومهم

* * * *

امتدادُ الشوارع لي
الحكاياتُ هذا الهديلُ السطوحُ
الغناءُ ... الصدى والمدى : منزلي
رايتي : جبهتي
وانا : جبلي
والعصافيرُ ... زيتونُ هذي التلال
المصابيحُ والميجنا : رُسلي
خطوتي : الأرض
والشهدا : مَعْقلي

* * * *

سيارة جيب مدنية،مستوطنون يطلون بأسلحتهم الجاهزة من صندوقها بينما ينثر احدهم بيانا في شوارع نابلس ... ليتكرر المشهد بعد ذلك بسيارة اخرى في القدس ، الخليل ، بيت لحم ... رام الله .

البيان رسالة موجهة الى المواطنين الفلسطينيين ، احتل النصف الايمن منها نَصُّه العبري والنصف الايسر النصّ العربي وبينهما تخطيط لقلب يعد بالحب !!

والبيان يقول : بمناسبة قرب الاحتفال بمرور اربعين عاما على اقامة

« اسرائيل » ندعو المـواطنين العرب في الضفـة الغربيـة ، بالتبـرع لصالح « جيش الدفاع الاسرائيلي » معلنين ان اهدافنا تتمثل فيما يلي :

- توفير وسائل الانقاذ وانشاء المؤسسات الطبية التي تتولى معالجة الجنود الاسرائيليين .

- توفير سبل التعليم والثقافـة للجنود الذين لم يتمكنـوا من الحصول عليهـا قبل التحاقهم بالجيش .

املين ان يلقى توجهنا هذا استجابة شخصية

التوقيع :

« صندوق ليفي من اجل امن اسرائيل » .

لهذا الجندي مهمة واحدة
هي القتل

سجن .. ابراج مراقبة ... عيون بنادق تمسح الساحات بشكل دائري .. عربات جنود خلف اسلاك شائكة ... اعشاب جافة... هوائيات لاجهزة اللاسلكي .. غروب ... رام الله .

في الداخل : غرفة صغيرة بلا نوافذ ... باب حديدي ... كرسيان .. طاولة .

محقق يدور في ارجاء الغرفة .. شعر احمر ... طويل ... عينان ثاقبتان ... مليئتان بالثقة !!

البحري واقف قرب الباب ... يُغلق من الخارج .

المحقق « شلومو » : ها نحن نلتقي مرة اخرى ... تفضل ... اجلس هنا ... على الكرسي ... اجلس جيداً ... لانك لن تخرج ثانية من هنا ... كل شيء لدينا اليوم ... كل المعلومات ... رحلاتك الى بيروت ... دمشق .. عمان ...

اقامتك في بيروت ... المصيطبة في آخر شارع داود ابو شقرا ... في

الطابق الثالث من بناية « ابو احمد » واقامتـك في دمشق خلف الجامعـة ... كل هذه الامور واضحة لدينا الآن ... اتصالاتك ... تحركاتك كلهـا مكشوفـة لنا !

البحري يتابع حركة شفتي المحقق بصمت هادىء ... البحري يبتسم .

المحقق : تبتسم !! « يوجه لكمة شديدة الى وجه البحري ... يقع ارضاً والكرسي » .

البحـري يعـدل وضـع الكـرسي ... يـأخـذ مكـانـه بهـدوء كمـا كان.
« ساخراً » : هذا كل ما لديكم !؟

المحقق : واكثر !!!

البحري : اظن انه لم يعد لي منفذ الآن ... ويجب ان اعترف !!!

المحقق : انت قلتها !!

البحري : اذن سأخبـرك بكل شيء ... انت تسكن في الطابق الخـامس من البناية الثانية في شارع صهيون ـ حيفا ، بيتك مكوَّن من ثلاث غـرف .. وغرفة النوم تطل على الميناء ... الشقة مفروشة بسجـاد رمادي والجـدران بيضاء .

يرتبك المحقق ... وكأنه في مصيدة .

البحري يواصل : سرير غرفة النوم من الخيزران ... وسريرا ابنتيك من الخشب الأبيض وهنـاك صورة معلقـة في غـرفتهمـا ، لرامبـو ، ليس الكلب الذي قررت محكمتكم منذ ايام ان يقوم بالخدمة في « المناطق المحررة » بل رامبو الذي يحرز انتصارات امريكا الباهرة في فيتنام ... على الشاشة .

المحقق ... مأخوذاً بما يسمع ... يحدق ببله واضح ... وكأن كل شيء اعد لقتله في هذه اللحظة .

البحري : زوجتك ... نعم زوجتـك تعمل في بنـك « لؤمي » وتحب اللون الاخضر بدرجاته ... يذكرها ذلك بمنطقـة « غراتس » في النمسـا ... مسقط

راسها .

« المحقق ينهار .. يخطو باتجاه الباب الحديدي صارخاً .. يدق الباب بعنف. يأتي الحارس: يصرخ اخرجني من هنا بسرعة ... بسرعة هيا ... »

البحري يضحك بصوت مرتفع ويمسح خيط دم ينبع من شفتيه ..

« لحظات صمت » ... يتأمل البحري الغرفة ... جدرانها السود ... نقاط الدم المتناثرة فوقها ... وكأن الجدار تعرض لعدة صليات من الرصاص ... خطوط هلالية للدم... تبلغ السطح في بعض المواقع ...

شلومو يعود .... خلفه جنديان من ذلك الصنف الذي يبدو انه خلق فقط لمهنة واحدة ، هي القتل .

شلومو خلفهما الآن . يرتجف وهما يتقدمان ... يصرخ ...

- هذا مخرب خطير ... انه يعرف كل شيء عني ... البيت ... الاطفال .. زوجتي ... عملها ... كل شيء ... كل شيء .

يبدأ فصل من الضرب العشوائي ... يعقبه تعذيب منتظم ... البحري غائب عن الوعي ... مياه تندلق عليه ... البحري معلق من قدميه في اعلى الغرفة ... الضرب مستمر ... يخرج شلومو

بعد ساعتين يدخل مسؤول المخابرات العسكرية للمنطقة ...

شلومو بجانبه يرتجف .

المسؤول : قلت لي انه يعرف كل شيء عنك .

شلومو : نعم يا سيدي .

المسؤول : هل اتصلت بزوجتك واطمأننت عليها وعلى طفلتيك

شلومو : نعم يا سيدي

المسؤول للجلادين : انزلاه .

يتقدمان ليحلا وثاقه... ينتهي واحد منهما قبل الاخر فيبقى معلقاً من

قدم واحدة .. يتقدم المسؤول منه : دعوه للحظة ... هكذا ...

يقترب منه ثم يدفعه بقوة فيدور كمروحة في السقف ، يحلان وثاقه فيهوي على ارض الغرفة .

المسؤول : اعيداه لوعيه .

اجلساه على الكرسي

المسؤول « للبحري»: كيف الحال الآن ... ستحدثني عن كل شيء ... اليس كذلك ... هذه المعلومات الدقيقة ... « صمت » بالمناسبة هل تعرف شيئاً عني ...

وفجأة احس المسؤول بهذا الاحتمال فارتجف، الا انه ابعد هواجسه .

المسؤول : في أيّ تنظيم انت ؟

البحري : لست منظماً

المسؤول : هذه المعلومات الدقيقة يلزمها جهاز منظم ... وتقول ان لا علاقة لك بالتنظيمات .

البحري : ليس لي اي علاقة

المسؤول : ولكن كيف تفسر معرفتك بكل هذه المعلومات الدقيقة عن الضابط « شلومو » ؟

البحري : « وقد بدأ يستعيد قوته ... حين بدأ يدرك بأنه اوقعهم في مصيدتـه » : كل ما في الامر انني عملت في حيفا قبل اربع سنوات مثلما عمل غيري من العمال هناك ... عملت « طراشاً » وللمصادفة قمت بطلاء جدران بيت الضابط « شلومو » وعندما بدأ يحقق معي تذكرته ... فقط هذا كل ما في الامر ... ولذلك اعرف كل هذه الاشياء عنه .

« شلومو » يعود بذاكرته للوراء ... يهتز كورقة شجر مُصْفَرَة يوشك الخريف ان يبتلعها ... تسقط يداه على جانبيه بحركة لا ارادية كأنه بدأ

يتهدم وينحني رأسه الى الامام .. وجهه مسود ... وقوته تسربت من اصابعه ... يختفي كل شيء ويظل وجهه على حالته هذه ...

شلومو ورامبو في مهمة مشتركة

خارج الزنزانة مسؤول المخابرات يبتعد ... شلومو خلفه ... المسؤول لشلومو: لا فائدة منك بعد الآن ... ستعود للشوارع ... للدوريات ...

* * * *

شلومو ورامبو ... ودورية راجلة تعبر شوارع غزة .

* * *

قاعة صاخبة ... اغنيات ... فلاحات بأثوابهن المطرزة بالحرير ... اجواء احتفالية مشحونة بالترقب ... والاغنية تشق طريقها بثقة خطوة الشمس ...

الفرقة تغني والصبايا والشباب يدبكون ... فتتصاعد اللحظة تلو اللحظة تلو اللحظة لتشكل عرس الحماس .

* * * *

شلومو ورامبو ... ودورية راجلة تدور حول مبنى القاعة من الخارج .

الفرقة تغني :

ايتها الجناحُ والصباحْ
والوردة النبيئةُ ايتها الحرية

الموجودون في القاعة :

باسمها نغني وباسمها نموت
وباسمها نعمِّرُ الأزهارَ والبيوتْ

تنتهي الاغنية بالصوت الجماعي ... تتوقف في تلك النقطة التي تسفر عن هدوء عميق خاطف ... عقب سمفونية حارة .

عريفة الحفل: اليهن وهن يقتطفن اجمل وانبل ما في قلوبهن ... ويمنحننا مجد الحاضر وشمس المستقبل ... اليهن ... الى الطالعات من جذوع الزيتون وموج البحر ... من حقول القمح وبرتقال السواحل ... الى امهات الاعراس والغيوم والاشجار الطيبة ... الى امهات الشهداء سنقدم اليوم بعض الهدايا الرمزية ... لذا نرجو كل من استشهد لها واحد من ابنائها ان تصعد الى خشبة المسرح .

فلاحات يتململن

اصوات :

- قومي يا ام أحمد
- قومي يا ام عبد الله
- قومي يا أم سعيد
- قومي يا أم محمد ...

تعم الحركة ... وتبدأ مجموعة من النساء بالصعود الى خشبة المسرح المتواضعة في حين تقوم مديرة الجمعية بتسليم دروع نحاسية منقوش عليها شجرة زيتون وشعلة الى الامهات . « عددهن حوالى ١٠ » .

عريفة الحفل : الآن ستقدم الجمعية هدية لمن قدمت شهيدين للوطن ...

تقف امرأة ... تتبعها اخرى واخرى .

امرأة : قومي يا ام محمد ... لماذا تجلسين ... هيا

تنتصب ام محمد ... تصعد خشبة المسرح تتسلم درعاً آخر وتعود الى مكانها .

عريفة الحفل : سنقدم الآن هدية للام الفلسطينية التي قدمت ثلاثة شهداء .

« تتلبك » أم محمد في مقعدها ... تنهض... تخطو باتجاه خشبة المسرح تتسلم الهدية وتعود .

امرأة في الصف الخلفي لام محمد : « يا خالتي ... الم نلتق قبل سنوات على الجسر .. »

ام محمد تنظر في وجهها : نعم ... اظننا التقينا ..

تشير الى طفل في الرابعة من عمره يقف امامها : هذا هو ابنك ... الرضيع !!

- لم يعد رضيعا اليوم ...

ام محمد : كلما تذكرت ما فعله هذا الصبي بهم في ذلك اليوم ابتسمت بيني وبين نفسي حتى ان ذلك حدث اكثر من مرة وسط الناس ، فكانوا يحدقون بي ... ثم يقولون ما الذي يجعلك تبتسمين يا ام محمد ... فأقول ... انها قصة غريبة ... فيطلبون ان اسردها عليهم ... وهكذا كل مرة .

المرأة : ولكن ما الذي حدث لك يومها يا ام محمد ... لقد رأيناهم يحاصرونك ...

ام محمد : لا تخافي ... ام محمد لا خوف عليها ... قال لي الضابط... سنبعد كل عائلتك من هنا ... فضحكت :

قال لي : تضحكين

قلت : لا يستطيع احد ان يبعد اولادي ... وزلمتي ايضاً .

وعندما عـرف ان كل اولادي شهـداء... قال سنبعـدك انت ... وابقاني داخل سور الاسلاك حتى المساء ثم قال هيا اذهبي ... فتوجهت غربا ولم يكن قد اشار علي الى اين اذهب ... ولكن لم اكن على استعداد ان اذهب الا غرباً ... فلا مكان لنا الا هنا .

عريفة الحفل : سنكرم الآن امنا جميعاً ... الام التي قدمت أكثر من ثلاثة شهداء ...

تنهض ام محمد بثقة ... تراها العريفة ... فينهمر الدمع من عينيها .

تزغرد النساء في القاعة ...

يضطرب الزائر الاجنبي القابع في الصف الأول ..

نباح « رامبو » يأتي شرساً من الخارج .

تصعد ام محمد الدرجات .

صوت من خلف الستارة :

في ناسْ زيّ الشجرْ
وفيهم زهرْ حنونْ
واحدْ بيعطي ثمر
واحد ظلالْ وغصون
ويسقطْ ورقْ ويطيرْ
مع ريحْ في كانون
لكن شهيد البلد
بيظل حتى الأبد
فوق الجبل زيتون

تهبط ام محمد الدرجات ... لا شيء سوى ايقاع خطواتها على

الارض ... ايقاع يحتل التفاصيل ... ويمحو نباح رامبو في الخارج ... واصوات جنازير الدبابات المتقدمة نحوها ... ايقاع يرتفع ليختلط مع ايقاعات اغنية «**يا ام الشهيدوزغردي ... كل الشباب ولادِك**» .

عريفة الحل تستعيد روحها من الدمعة : الآن سنقدم هدايا رمزية لامهات المعتقلين والمعتقلات .

نساء القاعة يقفن كلهن .

وجوم تام .

عريفة الحفل ترتبك ... يأتي الصوت من خلف الستارة ثانية ... فتهتدي عريفة الحفل للحل ... فتبدأ بالغناء معه :

يا دارْ لا تتعبي
ظلّي فرحْ وازهارْ
وفي الليلْ قومي اطلعي
على روس هالأشجارْ
ولِشرِّقْ مدي البَصرْ
وقولي لكلّ الزغار
الخيل الأصيلة وحدها
بتكمل المشوار

سيمفونية الصدور يقطعها عواء الذئب

رام الله توشك ان تأوي .. فبعد ساعة ونصف الساعة .. تلملم المدينة اطرافها .. وتظل الحراب تجوبها .. رجل في الستين يتذكر جيداً انهم قالوا له : بيت ابنك يحاذي سجن رام الله من الجهة الشمالية .

يسأل : ولكن اين السجن ؟ ويحاول ان يرد السؤال .. الا انه يكون قد افلت . ودون تردد تشير الطالبة التي التقطت كلماته بسرعة :

ها هو .. وكانت يدها مصوبة الى جندي بقبعة حمراء بصحبة كلب من فصيلة متميزة . وتمضي الطالبة دون ان تلتفت .

* * *

صوت المغني داخل السجن .. وفي الخارج ظلام كامل .. سوى ضوء عين الكشاف التي تتصفح الاسلاك الشائكة للسجن .. وظل العسكري في برج المراقبة المواجهة للبيوت . والمغني يغني :

لن اقولَ :

الرصاصُ الذي فاجأ الحزنَ فاجاني

كنتُ امشي الى جسدي في الحرائقِ
او في الزحامْ
اردّ الذبابَ عن الحلمِ
احرسُ
في طلعةِ السروِ يومَ الحَمامْ
لن اقولَ :
الرصاصُ الذي فاجأ الصمتَ فاجاني
كنتُ أُنشدُ
والصبحُ يفتحُ نافذةً لجراحي ويهمسُ :
يا ايها الداخلُ الآنَ قلبي :
عليكَ السلامُ
عليك السلامْ ..
لن اقولَ ..

* * *

صباح . سجناء . . « البحري » يدندن : « يا ايها الداخل الآن قلبي . . عليك السلام » فتبدو الاغنية وكأنها استمرت طوال الليل .

رجل في الخمسين . . سجين . . يحاذي البحري يسأله : ايجدي الغناء ؟

فقال : قليلاً . .

وغنى كثيراً . .

البحري يلقي نظرة باتجاه بيت يجري بناؤه بجوار السجن . .

ملاحظة : حين ترى السجن لأول مرة تدرك تماماً انه زاحم البيوت طويلاً حتى استطاع دفع بعضها بعيداً والانتشار هنا . . كل الاشياء متآلفة في الحارة . . شجرة الصنوبر ، حدائق المنازل الصغيرة ، داليات العنب ، شجرة التين . . كل شيء ، سمفونية كاملة من الهدوء . . يقطعها عواء ذئب .

البحري لرجل في الخمسين : بعد ثلاثة اشهر سأخرج من هنا . . ولكنني لن ابتعد كثيراً عنكم . . سأغني لكم في شرفة ذلك البيت .

الرجل : اي بيت ؟

البحري : ذلك البيت المحاذي للاسلاك الشائكة .

الرجل : هل تحدثت مع اصحابه .

البحري : لا .

الرجل : فكيف ستسكنه .

البحري : لانني متأكد من ذلك . . ستبقى تلك الشرفة لي .

* * *

يوم آخر . . حركة العمال في البيت المجاور تملأ القلب حياة . . السجناء في ساحة السجن . . ينظفونها .

البحري ينادي : يا خالتي . .

امرأة بقرب البيت ترد : نعم يا ابني .

البحري : اريد ان استأجر تلك الشقة التي تطل شرفتها علينا هنا .

المرأة : هي لك يا ابني . . هل انت متزوج ؟؟

البحري : سأخرج واتزوج .

المرأة : متى يكون ذلك ؟

البحري : بعد ثلاثة اشهر .

المرأة : مبروك سلفا .

يتدخل الجندي لقطع الحوار .

البحري لرجل في الخمسين بجانبه : قلت لك انني سأغني لك من هناك . . كل مساء .

الرجل : ولكن هل تستطيع ان تجعل غناءك مؤبداً . . مثل الحكم الصادر عليَّ .

البحري : اعرف انني سأغني كثيراً .

الرجل : هل ستغني تلك الاغنية التي تقول :

ليا وليا يا ابنيه
ضاق السجن عليَّ
سدوا دروب بلادي
من الميه للميه ..
وسعوا ها الزنزانه
يافا بصدري سهرانه
وزيتونتنا العطشانه
بدها تشرب حرية

البحري : سأغني من هناك . . ولكن علي ان اسمعك تردد الكلمات بعدي، بهذا اعرف انك على خير ما يرام .

رجل في الخمسين : اتفقنا .

البحري : اتفقنا .

* * *

البحري ينهض من نومه . . . صباح صاف . . . خارج مدى القيد . . . وخارج مدى البنادق ، صباح شاسع لا تطاله زنزانة . . . ولا يبلغه ليل . . . يغادر السرير . . . يشرع النافذة ، موقع الشمس خلف شجرة الصنوبر يجلل الشجرة بهالة من النور ، وفي مقابل النافذة تماماً اسلاك شائكة . . . عربات جنود . . . سجون بنوافذ سرية . . .

البحري : صباح الخير

السجناء يردون معاً: صباح الخير !!

فيأتي صوتهم مزيجاً من توحد الضوء بامتداده نحو قلب الحياة .

هادىء كلُّ شيءٍ هنا هادىء
مثلَ سكينةِ الذّبحِ
مثلُ خُطىً في السرَابْ
مثل دندنة العودِ
ما بين انشودتين وصمتِ السحابْ
هادىءُ كلُّ شىء هنا ... هادىءُ :
نظرةُ الفتياتِ
عبورُ الضُحى للسريرْ
خفقةُ لجناحٍ يطيرْ
حجرٌ في يدَ الطفل
نصلُ سيبرقُ بعد قليلْ
هادىءُ كل شىءٍ هنا وجميلْ

□ دورية . . . .

يقظةُ في الخطى
يقظةُ في السلاحْ
يقظةُ في الاصابعِ
فوقَ الزُّنادْ
يقظةُ الرمح حين يشقُ الجراحْ
يقظةُ في الدقائقِ
فيما مضى ... وسياتي ... وبينهما
يقظةُ داميةْ
يقظةُ كالنباح !!

مساء ثقيل يزحف باتجاه البيوت ، يغمرها بأمواجه الرمادية ، حركة غريبة ... وهي دوماً غريبة تحتل الهدوء العميق وتتسلل عبر الضباب الذي ينتشر على رام الله ...

رام الله الطفلةُ ..
والسيدةُ ....
الالقُ الصاعدُ من حجراتِ الفلاحين
سفوحُ النغمةِ وصعودُ الكلمات الى قمم سريّة .
رام الله يدُ طيبةُ
تلويحةُ غصنٍ أخضرَ
نارُ موقدةُ ...
عاشقةُ تغزلُ موعدها من يومين
فتى قمحيْ الوجه ...
حصانُ الاسطورةِ ..
ساريةُ تخفقُ منذ تفتحِ قممِ الكونْ ...
وحكاية حبٍّ شعبيّة ..

البحري يغني .. الشرفة تستعيد اجنحتها كطائر سيبدأ يومه بعد شعاع .

منذُ ثلاثة الاف سنة
اعرفُ شمساً واحدةً
اعرفُ لمستها فوق جبيني عند الفجر ...
واعرفُ تلويحةَ حنطتها
منذ ثلاثة الاف سنةْ
وأنا اسمعُ في قلبي الطائر
في طرقات دمي وغنائي خطوتَها
منذ ثلاثة الاف سنة
ظلّتْ حاضرةً في

لكني انهض هذي الليلة

كي استحضرَ صورتها ؟؟؟

خلف جدران السجن ايقاع يتصاعد مع الاغنية والسجناء يطرقون الاسرة بأيديهم .

مخيم الجلزون:
عصفور يعد بأغنية

مخيم الجلزون ... مساحة جاهزة دائماً للعرس او للمظاهرة ... ظاهر ... ومختف ... لا يستطيع الجندي ان يدرك سره ، يبتكر طرقاً جديدة لوضوح غامض ... لا تحيط به عين البندقية ... ويبدع نوافذَ دائمةً لغموضٍ واضح يهزّ قامات الجنرالات .

ماكر كسنبلة تراوغ هبة ريح ، وطيب كعصفور يعدُ بأغنية .

والجنود ذوو القبعات الحمراء ... ماهرون في تفجير الحقد . خطوتهم ... البندقية المتحفزة ، نظرات اعينهم ...

دائماً انت مشروع سهل لقتيل لا يكلف كثيراً .. « طخ » رصاصة ... لا... بل رصاصات. فالجندي الاسرائيلي حين يوجه مدفعه الى صدر طفل لا يطلق رصاصة واحدة ابداً . . . دائماً يطلق صلية كاملة ... كأنه يخشى ان يترك للصغير قبضة هواء او حياة يستطيع من خلالها ، قبل استشهاده ان يمطر الجندي بوابل من القذائف او الحجارة .. او نظرات التحدي ... لا فرق ..

لا احد يموت هنا برصاصة واحدة ... حتى بعد تطوير جهاز قمع

المظاهرات ... والدولة كلها ذلك الجهاز. وادخال القناصة الى ساحة المعارك ... رغم هذا ... يسقط الشهيد بأكثر من رصاصة ...

في الليل ... يستطيع اطفال مخيم الجلزون ان يلعبوا ... لان المخيم يكون لهم في هذه الساعات ، فالجنود لا يجرؤون على اجتياز عتبة براءته الشرسة .

* * *

شلومو : لا احب الليل هنا ..... ان السكين تتربص ... ولا تستطيع ان تعرف من اين ستخرج عليك ...

جندي : انا احب النهار هنا ... عندما اتذكر ان اطفال المخيم صاحون ... « صمت » هل تعتقد ان اطفال الحجارة يختلفون عن اطفال الار بي جي ؟؟

شلومو : اظن ذلك .

الآخر : ولكنني اقول انه لا توجد مسافة فاصلة بين القذيفة وبين الحجر ، ما دامت مساحة القلق القائمة في داخلك جاهزة دائماً لاطلاق النار بجنون ... « صمت » اتعرف ان المسألة نسبية « صمت » هناك تكون في داخل الدبابة ، ومن الطبيعي ان تكون هناك قذيفة ... وهنا ... تكون عاريا ... ويكون الحجر ...

شلومو : ابتعدنا قليلاً !!

الاخر : ربما .

شلومو : ولكنني لا احب الليل هنا

الاخر : .. وانا لا احب النهار .

* * *

خيمة مراقبة على مشارف مخيم الجلزون ... جنديان ... وظهيرة

صافية لم تُعَد اصلاً للعسكر لشبهها المطلق باشجار الزيتون التي تحيط المخيم ..

خيمة ... وعلم اسرائيلي يرفرف فوقها اللون الازرق في العلم ... محاولة سوداء لتقليد بحرية السماء فوق المخيم ...

حجارة تنهال على الخيمة من اسفل الشارع ... الجنديان يمتشقان سلاحهما وينطلقان باتجاه مصدرها ... ينحدران ... يقفزان الهوة الصخرية الصغيرة في سفح الجبل ، ينحدران الى الجانب الاخر منه باتجاه المخيم ... يبحثان خلف كل الاشياء ... لا يوجد هنا بشر ...

شلومو :وحدها الاشجار في هذه الارض ... هل تكون الاشجار ؟؟

الاخر : لا ادري ... ربما ... لا ... لا يمكن

شلومو : لنعد

الاخر : لنعد

يتسلقان السفح ثم الهوة من طريق اقل وعورة ... ويندسان في داخل خيمتهما .

شلومو : مهمة غريبة تلك التي نقوم بها ... نجلس ونراقب

الاخر : انراقب العربات التي تعبر الشارع باتجاه نابلس ، انراقب الذاهبة الى رام الله ... أنراقب الطريقة التي تنمو بها زيتونة على التل ... أنراقب مؤامرة تخريبية تحاك خلف الجدران ... انراقب رجلًا وامرأة في حالة عناق ... سيخرجان علينا بعد تسعة اشهر بشيطان اخر ... انراقب اغنية تمهد الطريق للغضب ... ام نراقب صغاراً يدشنون اغنية المغني .

شلومو : اتذكر الايام التي عملت فيها محققا ... كانت الضحية تأتي اليَّ جاهزة ... وما عليَّ سوى التهام لحمها كيفما اريد ....

يتذكر السبب الذي دفعه الى العودة للشوارع ... فيربدُّ وجهُهُ. تنقبضُ قسماته .

* * *

العربات تمر ... سيل لا يتوقف ... سيارات عسكرية ... وبداخلها مسؤول المخابرات في المنطقة ... يلوِّحُ بيده للجنديين .. يردان على تحيته مبتسمين ... فجأة يتفجر صوت فرامل العربة العسكرية بجنون ... الجنديان يقفزان من مكانهما ليستطلعا الامر ... السيارة العسكرية تعود الى الخلف مبعثرةً سيل السيارات القادمة والذاهبة على الطريق ... تتوقف ... يصعد مسؤول المخابرات باللعنات اليهما ... الجنديان يرتبكان ... لا يعرفان ما الذي يحدث ... الضابط يجتازهما ثم يندفع باتجاه الخيمة. يقفز باتجاه ناصيتها ويقتلع العلم الفلسطيني المثبت فوقها .

ـ ما هذا ؟!! « يصرخ »

لا احد يجيب ... الجنديان غائبان عن الوعي تماماً ... مفاجأة

ـ ما هذا ؟؟؟

لا احد يجيب .

* * *

المشهد من جديد : اطفال يقذفون الحجارة باتجاه الخيمة ... جنديان يهبطان التل خلفهم ...

في الجانب الاخر ... خلف الخيمة ... صغيران يندفعان باتجاه الخيمة ... احدهما ذلك الرضيع الذي كَبُر ... ينزلان العلم الاسرائيلي ويضعان العلم الفلسطيني وينسحبان بهدوء .

الجنديان يعودان ... يدخلان الخيمة دون ان يريا العلم ...

نصف ساعة مرت على الحادثة ... لا بد ان المسافرين على الخط العام قد ضحكوا كثيراً ... وهم يرون الجنديين غارقين في احاديثهما في ظل خيمة يظللها العلم الفلسطيني ... لا بد ان الخبر طار الان واصبح في كل الاراضي المحتلة لا بد ... !!!

* * *

سيارة عسكرية كبيرة ... جنود يقتلعون الخيمة ... ويلقون بها في صندوق السيارة ... الجنديان في الصندوق الخلفي ... السيارة تنطلق .

الجندي : قلت لك انا لا احب النهار هنا .

شلومو : وانا قلت لك : انا لا أحب الليل .

البحري الصغير يحفظ نشيد الخيول

يجيئونَ من كلِّ صوبٍ يجيئون
ونحن سنبقى
شارعُنا توامُ البحرِ
شباكُنا
وعيونُ صغيراتنا
وهمو ...
ياصديقةُ من اول الأمر غرقى
يجيئون من كلِّ صوب ...

ليل صلد النجوم تغرس محاريثها في عتمته . . والمسار صعب . . بقايا نبات الربيع على اطراف الوقت يابسة . . المدينة خلت من خطوات سكانها . . وعاد الصمت ليشغل عتبات المحلات التجارية وسوق الخضار . . الطريق اليومي الذي تسلكه طالبات المدارس ، وحتى ذلك الصمت المعتاد الذي غالبا ما يشاهد على عتبة الصيدلية كان اكثر صمتا . .

صمت كامل . . .

والجندي في برج المراقبة يتصفح الجهات كلها مستعيناً بعينه الثالثة والرابعة :

عين البندقية .

وعين الكشاف .

صمت كامل .

يتحرك الصمت كرجل يحدق في الجهات ثم يبدأ المسير باتجاه أحد البيوت ، تصبح خطواته مسموعة بشكل اكبر .

يجتاز العتبة والعتمة . . .

ينفتح الباب امامه فيسفر عن مشهد احتفالي كامل .

الجنون وحده يصدق ذلك . . ولكنه الجنون الذي يصل الى اقصاه واذا به يصل الى العقل المطلق . .

المكان بيت البحري .

عشرون رجلاً وامرأة . . وسبعة أطفال . . فرح فذ . . كأنهم اقتطعوا من عرس اسطوري . . او صهيل مهر جامح . . الستائر مسدلة . . حبات تين على الطاولة يسحبن القلب الى ظل الشجرة التي قطفن منها . . الى امتداد الارض الخارج من ظلها نحو القمم الذاهبة في الزيتون . . ونسور الاعالي . .

البحري «للصغار» : حفظتم الاغنية الآن ؟ . . نعيدها معاً ؟ الاطفال «بفرح» نعم . . هي . . هي «يصفقون» .

البحري :

خيولٌ .. خيولٌ .. خيولٌ .. خيولْ ..
على التلِّ تصهلُ عندَ الصباحْ
وتعبرُ كالفجرِ هذي السهولْ
وتعدو هنالك مثلَ الرياحْ

خيولٌ .. خيولٌ .. خيولٌ .. خيول .

«الصغار يرددون المقطع»

البحري :

خيولٌ تحبُ الفضاء الرحيبْ
وتعشقُ فرسانها الاقوياء
وغُرَّتُها مثلَ حقلٍ خصيب
وتأتيه شمسُ الضحى بالضياء

الصغار :

خيولٌ .. خيولٌ .. خيولٌ .. خيول .

البحري :

خيولٌ وفيها الحصانُ الأصيل
وفيها حكايا الزمانِ الجميلْ
ويشبهها النصرُ حينَ يجيء
ويملأ ساحاتِنا بالصهيلْ .

الصغار :

خيولٌ خيول خيول خيول

البحري :

خيولٌ وقال لنا جدُّنا
نحبُّ الخيولَ كأولادنا
ومنذُ زمانٍ قديم قديمْ
نُسمّي الخيولَ باسمائنا .

الصغار :

خيولٌ خيولٌ .. خيولٌ خيول

البحري :

خيولٌ ورائعةٌ كالنشيدْ
ومزهوةٌ لا تحبُ القيودْ
وتعدو الى الشمسِ عندَ المغيبْ
وتصهلُ .. يشرق فجرٌ جديد

الصغار :

خيولٌ .. خيولٌ .. خيول ... خيول

جميع من في الغرفة :

خيولٌ .. خيول .. خيول .. خيول

اثناء الغناء يطل علينا وجه البحري الصغيـر يغني بفرح مـع **الاطفال** . . وقد امتلأت عيناه ببهجة مشاغبة .

عنـد انتهاء الاغنيـة يتقافـز الاطفال . . يصفقـون بـايـديهم . . في حين يتوقف كشاف برج المراقبـة على نافـذة الغرفـة . . فتشتعل السـتـارة . . كأن ذلك اشبه بانذار اخير .

نابلس والوقت شمس

نابلس.. ابواب السوق القديم مقفلة.. عيبال ينحني ليضم المدينة برفق، الوقت شمس .. خطوات تعبر الشوارع باتجاهات متقاطعة .. تلقي التحية وتمضي .. الجنود من زمن هنا يقفون .. كأنهم اصبحوا سطوح المنازل بعد ان طال وقوفهم عليها .. دوريات منقولة .. دوريات راجلة .

الابلاغ عن الاضراب لم يكن يسيراً هذه المرة .. المحلات التي استجابت ليست كثيرة .. والجنود يضعون علامة «×» «اكس» على كل محل تجاري مغلق بانتظار ما يتمخض عن الحاكم العسكري من عقوبات .

الذين فتحوا ابوابهم لم يستطيعوا اغلاقها ، فالاغلاق في هذه اللحظات تحد مباشر ، والجنود فرحون .. ان بامكانهم الآن ان يجعلوا اصحاب المحلات المضربة مثلا لا ينسى .

هكذا اجاب الحاكم العسكري عبر جهاز اللاسلكي احدى الدوريات .. واشار عليهابوضع علامة «×» على كل محل مغلق . فامتثل شنومو للامر .

***

تاجران يهمسان لبعضهما :

الاول : ما الذي نفعله الان .. والوضع لا يسمح بشيء؟

الثاني : هم الآن « واشار الى الجنود» مستعدون لنسف اي محل يغلق امام اعينهم .. لا نملك الا ان ننتظر .

الاول : ولكن .. هناك خطوة واحدة يمكن ان نقوم بها ..

الثاني : ما هي ؟

في هذه اللحظة يتقدم رجل منهما .

الرجل : اريد سُكراً .

الاول : ولكننا مضربون .

الرجل : مضربون !

الثاني : «وقد فهمها» : نعم مضربون .

الرجل ينسحب بعيداً .

الاول : اترى .. ان الحل في الا نبيع شيئا .. وبهذا نكون قمنا باضعف الايمان .

***

مجموعة من الرجال في غرفة ضوء خافت ..

البحري «لهم» : علينا ان نتدارك خطأنا .. عندما لم نستطع ان نعلن عن الاضراب بشكل افضل .. غدا سيعاقبون اصحاب المتاجر التي اضربت .. والحل في ايدينا الان .

اشارة «×» تبدأ الان باحتلال باب كل محل لا توجد عليه اشارة مثلها ، الاحمر ينتشر بفوضى احيانا ..ولكنه يؤدي الغرض منه .

وجه البحري يلوح كومضة خاطفة وهو يضع الاشارات على الابواب .

الاجساد الفتية تعود الان الى هدوء الزوايا الكثيف .

نابلس في الليل

الهدوء يغمر الشـوارع ويتسلل عميقـا الى ادق الزوايـا الصغيرة لقـاع المدينة .. هنا يمكنك ان تلمسه .. هدوء مكثف ، خطـوات تخرج من العتمـة لتشق اطمئنانه ، تنتشر في اتجاهات متعددة .. عبر الشوارع .

المهمـة سهلة .. وصعبـة .. كـل شيء يجب ان يتم بصـورة دقيقـة .. اجساد فتية شجاعة تنطلق في وقت واحد .. في لحظة واحدة وعبر اكثـر من شارع .. الظهور للجدران .

***

شلومو يشهر سلاحه ورامبو انيابه

الحاكم العسكري في سريره .. «هو نفسه مسؤول المخابرات» .. يتقلب ، ينهض .. ليلة بطيئة .. ولكن النهار مر دون مشاكل .. هذا بحد ذاته انجاز كان يجب ان يسلمني لنوم هادىء .

يخرج الى الشرفة .. ينظر في اتجاه نابلس .

لا شيء سوى بعض الاضواء .

«لنفسه مواصلا» : مدينة غامضة في الليل .. عشرون عاما مرت .. وكلما حاولنا فهمها ازدادت غموضا ..

يستدير ليدخل .. «ثم يواصل» مدينة واضحة في النهار .. ومبسوطة امام العين بلا اسرار .. بسيطة .. ولكن من فينا يستطيع ان يعرف الشخص الذي سينقض عليه خاطفا كالبرق .. بسكين او قنبلة .. من؟!

***

الحاكم العسكري في الشوارع يسير .. ويحدق في الوجوه .. يتوقف عند بعضها مسمرا عينيه في ملامحها .. يتلفت خلفه متابعا وجه شاب

اختفى .. يغطيه ظهره الان .

يعـود لسيره الطبيعي .. يتكـرر المشهد : طـالبة مـدرسة وفتـاة تعبـر المدينة كسهم واثق .

الجنود حوله .. من بينهم شلومو .. ورامبو .. شلـومو مشهـرا سلاحـه ورامبو انيابه .. وبين لحظة واخرى يزمجر محاولا الافلات باتجـاه العابـرين الذين يبتعدون عنه .

الحـاكم العسكري «مسؤول المخـابرات» يتـوقف عند بـائعة التين «ام محمد» .. فيتوقف الجنود ورامبو .. ويتحلقون حوله ، شلومو يبدو الان اكثـر يقظة بعد حادثة الخيمة .. وهو الاكثر تحفزا بين الجنود .

ام محمد «ببساطة» : تين طيب يا خواجا .
الحاكم العسكري ينحني ليلتقط حبة ..
ام محمد «تواصل» : **وحلو مثل بلادنا** .

الحاكم العسكري يتوقف في منتصف المسافة حين يسمع كلمة «بلادنا» وتكون اصابعه قد لامست حبة تين .

يـدوي انفجار . . يسبق سـطوع المشهد . . يتفقـد جسده . . هـو الآن مغطى بالدم .

***

سيـارة جيب تحترق . . والحـاكم العسكري يحـاول الخـروج منهـا . . يدفع السائق الممزق جانباً ويتدحرج .

يصرخ : ولكن لا احد هنا . . وحده الشـارع مقفر . . والقنبلة سقـطت في الزاوية اليسرى الاخيرة لعربة الجيب .

السيارة تشتعل . . وهـو الان يزحف بعيـدا عنها تحت ضـوء حزمـة النار العالية .

***

على التل .

شاب ملثم : لم اكن اعتقد انها تشتعل بهذه السرعة .

البحري : هذا لانها معبأة بالحقد .

يبتعدان .

***

ولكن الحاكم العسكري الذي لم يكن حالما في تلك الليلة ظل اربع ساعات ينزف قبل ان يسمع صوت سيارة قادمة . . وبتردد يخرج اليها .

عند ذلك يدوي صوت الفرامل في غبش الفجر الساكن ويندفع جنود .

***

الحاكم العسكري . . امام بائعة التين . . بهدوء ميت يقلب سلتها بقدمه فتتناثر حبات التين لائذة بها .

ام محمد «بهدوء اكثر صرامة.. وشبه مازحة » : خسارة على التينات ، لكن مش مهم يا خواجا .. لسه الشجرة اللي قطعناهن عنها عليها كثير .

كان الناس قد تجمعوا . . وهنا بدأت القبضات تتكتل على شكل غضب . . الجنود امسكوا اسلحتهم بصورة تتيح لهم اطلاق النار بسهولة . . ورامبو قفز على قائمتيه الخلفيتين واشرع انيابه بوحشية .

الحاكم العسكري يدير ظهره ويمضي . . والجنود خلفه يتصفحون حركات الناس بأعين بنادقهم . . الى ان يختفوا في شارع آخر .

***

الحاكم العسكري داخلا باتجاه السرير .

«لنفسه»: ليلة قاسية . . ولكن الم يكن هذا النهار هادئاً وجاء على افضل مما تصورنا؟!

***

الشمس تشرق كاملةً استدارتها .. وبحجم أكبر من المعتاد . كأن الشمس تشرق اليوم لنابلس وحدها .

هكذا قالت امرأة لزوجها في سفح عيبال ، عندما غمر الضوء غرفتهما .

***

الحاكم العسكري في سيارة جيب . خلفه سيارة اخرى . . هدوء وبعض الغبش لم يزل منتشرا مما يعطي الزوايا وممرات السوق القديم غموضا ضبابيا شفافا .

يتصفح المحلات التجارية . لقد استيقظ اليوم وهو يعد نفسه بفريسة كبيرة .

الاشارات المنتشرة على ابواب المحلات التجارية تتوالى امام عينيه . . ولكنه حتى الان يبدو غير مدرك لما حدث . فجأة يصرخ في السائق . . يطلب منه التوقف .

ينظر الى رجال الدورية خلفه بغضب. ينزل .

قلتم بالامس ان مجموع المحلات التي اضربت لا يتجاوز النصف . . فما الذي حدث . ان العلامات تغطي ابواب كل المتاجر .

جنود الدورية يتصفحون الابواب .

الحاكم العسكري : ما الذي حدث ؟

تلتقي عيناه بعيني شلومو . . يرتجف شلومو . .

يعود الحاكم العسكري الى السيارة وهو يطلق شتائمه : مرة اخرى يوقعون بنا .

شلومو «لجندي بجانبه» كانت فكرته!

الحاكمَ العسكري مواصلاً:لن نستطيع الان معاقبة الذين اضربوا امس لاننا لا نعرفهم . . لن نستطيع معاقبة نابلس كلها . . لن نستطيع

«صمت»

بل . . بل نستطيع!!!

***

اذاعة «اسرائيل» : وقد قرر الحاكم العسكري لمنطقة نابلس عدم السماح لاي من اهل المدينة بمغادرتها او الدخول اليها حتى اشعار آخر .

رجل «لاخر» وهو يغلق المذياع : يعني نابلس محبوسة .

***

رامبو الذي كان يتقافز.. ومازال... في يد الحاكم العسكري الآن . . الحبل الموصل برقبته يساعده في الوصول الى مدى ابعد . . الناس في الشوارع والكلب في يد الحاكم العسكري . . ونابلس مغلقة . . الكلب ينطلق ، يتوقف. يلتفت الى الحاكم العسكري. نظرة امتنان متبادلة.. الكلب ينطلق . . قفزة في الهواء . . عالية . . ثم انقضاض صاعق . . الناس يتبعثرون في كل اتجاه . . مزق من اللحم تتطاير . . انياب الكلب تقطر دما .

ينطلق الجنود خلفه . . رصاص يملأ السماء . . لا يلبث ان يملأ الارض اجساد تتساقط . . مذبحة . . الجنود يطلقون النار مباشرة باتجاه صدور الناس الذين اصطدموا بطرق مغلقة فاعطوا ظهورهم للجدران فبدا المشهد صورة مثالية للحظة اعدام . . ورائحة الدم تفجر شهوة رامبو والجنود .

***

الصورة تتكرر الان والمشهد يكمل المشهد . . الكلب والجنود في دوار رام الله . . عند باب العمود في القدس . . على شاطىء غزة . . في سوق السمك . اناس يسقطون . . ومعالم المدن تحتل خلفية الدم النافر . .

عصيان نغمي

جنود يطرقون باب البحري بشدة . . يشرع الباب . . الجنود ينقضون عليه بصمت حاقد ، فيما يندفع احدهم الى الداخل .

يأتي صوته : لقد وجدته

يخرج وبيده «العود»

***

جنود على الباب الخارجي . . الاسلاك الشائكة عالية . . وكأنها اعدت لوقف تقدم جيش من العمالقة . السيارات العسكرية رابضة في الباحة اليسرى لمقر الحاكم العسكري . .

البحري يصعد الدرج وحوله الجنود

«صوت داخلي» يبدأ همسا . . وكأن البحري يدندن لذاته . . ثم يأخذ في الارتفاع تدريجياً ليشكل خلفية الدقائق التالية :

خطى الضوءِ اسمعُها في دمي
ونموّ الرياحينِ فوقَ سطوحي

اغاني البعيدِ
هدوءَ الشهيدِ
صعودَ النشيدِ الى أرض روحي
خطى الضوءِ اسمعها ..

***

المحقق : هـذه هي المـرة الـسـادسـة التي نستـدعيـك فيهـا الى هنـا ونحذرك .

البحري : ...

المحقق : ها هو العود اذن . . آه . . العود آلـة جميلة اظنها من اصـل يهودي ! !

البحري : ...

المحقق : هلاّ عزفتَ قليلا؟

البحري : ...

المحقق : اتعـرف . . تحيرني الالاتُ المـوسيقيـة . . كـل واحـدة لهـا صوتُها الخاص . . انحناءاتها . . وهي رقيقة دائما . . ناعمـة . . وخطرة . . الا تشبه النساء؟!

البحري : ...

المحقق : كنت اتمنى ان تعـزف لي شيـئـاً . . ولكن لا بـأس . . هـل تسمح لي بالعود قليلا .

البحري : ...

المحقق يتنـاوله بنفسـه : ليـس ثقيلا كمـا كنت اتصور . من الممكن ان اعزف قليلا . . اليـس كذلك ؟!

البحري : ...

المحقق يمسك بالريشة ، يحرك أصابعه كيفما اتفق . . تخرج النغمات في فوضى مزعجة ويتبعها قائلا :دو . . ري . . مي . . فا . . صول . . لا . . سي : لا اظن ان هذا العود جيد بما فيه الكفاية : اترى ان كل محاولاتي للعزف عليه بصورة جيدة لا تجدي. «صمت» ولكن ولكن . . يحيرني كيف تخرج النغمات من الداخل . . هل تخرج من الداخل فعلا ام من الاوتار . «ينقر الاوتار . . يضع اذنه على خشب العود» اتعرف : يبدو ان النغمات تنام هناك في الداخل وعندما تدق ابوابها ـ والابواب هنا الاوتار ـ فان النغمة التي تلمس الريشة بابها تجيب من الداخل . . وتخرج . . اليس كذلك ؟!

البحري : ...

المحقق : هذا يقودني الى حقيقة اخرى . . وهي ان النغمات نائمة في الداخل .

«ينظر داخل العود . . يلتفت الى البحري» :

عجيب انني لا استطيع رؤيتها . . وهي ايضا تأبى الاستجابة لنداء اصابعي . . هل تعتقد ان ثمة عصيانا نغميا في الداخل ؟ . . . «يكتشف طرافة جملته» .

: إيه «عصيان نغمي» «يضحك» اصطلاح جميل اليس كذلك؟!

«مواصلا»: ولكن لا تستطيع النغمات ان تبقى طويلا في الداخل .. من الممكن ان اقتحم بابها واخرجها كلها .. ثم .. اصلبها هنا في مواجهة الحائط رافعة يديها ..تصوّر الـ «مي» واقفة هنا ورافعة يديها والـ «ري» ترتجف بسبب التعب والصقيع الذي يملأ ساحة «المقر» في آخر الليل .. أوه .. ليس هذا فقط ، ان ما ينعشني اكثر .. تصوري لاصطكاك اسنان «الدو» من البرد .. ستصبح دوْدات « دو ... دو.. دو دو» .

«ينفجر ضاحكا»

منظر عجيب اليس كذلك؟

البحري : ...

المحقق: ولكنني ممتعض جدا من الـ «لا». اتعرف .. انها لا تعجبني لذلك من الممكن ان اطلق عليها النار في اية لحظة . او ادخل افعى الى صدرها واقول ان الـ «لا» ماتت قضـاء وقدرا .. ثم القي بها في البر .. وهذا يمكن ان يكون منطقيا .. فـانت تعرف ان الـ «لا» تحب الانطـلاق .. فهي بعد ان خـرجت من عندنـا ـ من هنا ـ صعدت الى الجبال وكـان مـا كـان .. ومن يستطيع ان يثبت اننا لا نقول الصدق ؟!

البحري : ...

المحقق : لكنني في البداية يجب علي ان اخرج النغمات واحدة واحدة هنا . . ولو بـالقوة . . لقـد حاولت ان ادعـوها بـرقة اصـابعي . . لكنهـا لم تستجب . . اتسمع . . برقة اصابعي «يضحك»

«يتناول سكينا. يجزالاوتار . . تتفرقع . . يدخل يده في العود»

: آه هاهي الـ«ري» . . امسكتها لقد افلتت . . هذه اللعينة .

«يحرك يـده داخـل العـود . . كمن يحاول امسـاك عصفور داخل قفص» .

: انها تفرُّ ثانية . . ولكن . . سأتركها حتى تتعب.. سأمسك الـ «دو». انني اسمع صوتهـا في الداخـل وهي تركض مبتعـدة داخل العـود . . ولكنهـا لا تستجيب

«يحاول ثانية»

: عجيب ، ان اخلاق الـ «لا» تسللتْ الى بقية النغمات ، هذا يجعل الامر صعباً عليّ اكثر . . اترى . . انني لا احب القسوة ولكنني اجبرتُ على اتباعها

«يقلب العود . . يهزه»

: اعرف ان النغمات ستتساقط الان « يهز العود ثانية . . وثالثة ورابعة . . »

«ينظر الى سطح الطاولة »

: لا شيء !! . . إسمع . . اذا نزلت اي منها فقل لي بسرعة .

البحري : ....

«يعود لهز العود ثانية » .

: قلت لك ان اخلاق الـ « لا » تسللت الى باقي النغمات ، انا مضطر الان الى اخراجها بالقوة .

«يرفع يده الممسكة بالعود . . يهوي به على الارض . . انفجار » .

* * *

بيت يتناثر . . زهورٌ حمراء طائرة في الهواء . . صغار تحملهم قوة الانفجار الى الاعلى بحيث لا يعودون الى السقوط ثانية على الارض . كتب تتناثر . . اشجار ، موسيقى . . عصافير . . بعضها يسقط مضرجا بالدم . . اجنحة وريش ناعم . . نباح كلب يختتم المشهد وينتقل الى المسافة الزمنية التالية له . . « رامبو » .

صوت من الخارج « جماعي »

خطى الضوءِ اسمعُها في دمي
ونموُّ الرياحين فوق سطوحي
اغاني البعيدِ
هدوءَ الشهيدِ
صعودَ النشيدِ الى ارضِ روحي
خطى الضوء اسمعها في دمي

يختفي الصوت تدريجياً . .

المحقق : لدي قرار ابلغك اياه . . واحذرك ايضاً : تمنع من مغادرة المدينة لمدة ستة اشهر . . تحضرمرتين.. صباحا ومساء لاثبات وجودك

هنا . . كما . . تمنع من الغناء في اي احتفال داخل المدينة . ان اي خرق لهذا القرار سيعيدك للسجن ثانية .

البحري : ...

«الصوت . . جماعيا . . يعبر الاسلاك الشائكة . . جهامةَ التحقيق . . نوافذ الحاكم العسكري المحصنة بالموت . . ويتصاعد . . ليتحول تدريجيا الى نشيد عال . . ينتفض المحقق ... يركض باتجاه الباب يفتحه . . وهو يتوقع انفجار المظاهرة في وجه هدأة قراراته . . .

الناس يعبرون الشوارع .. الايقاع اليومي المعتاد . . ولكن الصوت يجيء . . عاليا . . يتصفح المحقق وجوههم . . قاماتهم . . حركة شفاههم . . ولكن الاغنية الطالعة من بين اضلعهم تتواصل . . ويتواصل الغناء . .

خطى الضوء اسمعها في دمي ..

«يأس كامل يفترش وجه المحقق »

شلومو يُطلق النار على الوهم

شلومو يتقلب في سريره هذه الليلة .. الضوء الجانبي الساقط على وجهه من الزاوية اليمنى للسرير ، يغطي ملامحه بصفرة غريبة .. حتى ان من يراه في هذه اللحظة سيرتعد .. لانه وجد نفسه وجها لوجه مع رجل مرت ايام طويلة على موته .. ويشاطر الاحياء امتدادهم في المكان .

الا ان حركة شلومو المتوترة تعيده الى ذلك النوع من الحياة الذي يشبه «النزاع» .

يتقلب شلومو ثانية .. فيصبح الضوء خلفه .. ويعم الظلام ، فيبدو وجهه قطعة ساقطة من عباءة الكابوس .

***

في زاوية ما .. كان يراه متربصا به .. يلاحقه .. حيثما وقعت عيناه شاهد ذلك الوجه .. عيون تلمع .. ويدان سريتان .. كأن ما حدث ينتمي الان الى هوة ما وراء الزمن ..

وعندما همس شلومو لنفسه ان ما يراه مجرد اوهام ليس اكثر .. وان

البندقية وذلك الاصبع المشدود على الزناد بأعينه الرصاصية المشحونة بالبارود هما الحقيقة الوحيدة في هذا الكون .. عاد ليكرر ثانية : اوهام .. انها مجرد اوهام تضخمها نشرات الاخبار والجنود العائدون من الشمال ومدن الضفة والقطاع .

في تلك اللحظة التي اطمأن فيها لعين البندقية والاصبع المشدود على الزناد .. ومطلقِ وهمهِ الخاص . انشق منعطف ما .. في مدينة ما .. وسطع نصل الخنجر تحت ضوء غمر الثواني المميتة .. ودوت صرخة شلومو .

: ان كل الوجوه في ذلك الشارع اصبحت لها ملامح واحدة .. وتشابهت المدن ، قال رأيت «منارة رام الله» في باب العمود ودوار نابلس ايضاً .. ورأيت طريق الالام في معسكر الشاطىء ورأيت سوق جباليا في طولكرم . وحده النصل كان يبرق وتتقاطع فيه الشوارع ووجوه الناس .. وفجأة رايتهم كلهم يغوصون في لحمي ..

ولكن هذا المشهد لم يصل الى وضوحه الا بعد ايام وليال طويلة سُكبتْ قطرةً قطرةً في بحر العرق وفوق عرش الهذيان .

في البداية سأل .

– اين أنا؟

قالوا : في المستشفى

قال : واين كنت؟

قالوا : لسنا ندري .. لأن سائق سيارة الاسعاف التي احضرتك الى هنا .. لم يدر من اين اتى .. كنت تهذي .. وكان يهذي معك .

قال : لقد تأخرت مرة ثانية

قالوا : كيف؟

قال : كان يجب علي ان اطلق النار على الوهم وامحو الشارع .

***

النصل يقترب .. يغوص في الجنب الايمن لشلومو .. شلومو يصرخ ..

***

جنود على اسطح المنازل .. دوران محموم .. جثة الحركة ملقاة بهدوء في الشوارع وامتدادات الازقة .

والصوت يجيء من بعيد جماعيا ذاهبا في الحنطة :

لقد زرعناها على التلِّ الكبيرِ
هنالك ..
تلكَ البذرةُ
لقد زرعناها
بين الوديانِ الوعرة ..
تلك البذرة
بغنائنا
دعونا الارض لكي تستيقظ
ودعونا الحجرَ ليكون اقلّ قساوةً تحت محاريثنا
لقد زرعناها هناك
على التل الكبير .. تلك البذرة
وها هي ..
ها هي اصبحت شجرة .. واطول منا
تلك هي
ام الزيتون
واضأنا الدرب في ذلك الزمان
- ونحن ننهض مبكرين - بقناديلِ ارواحنا
وها هي الان تضيء قناديلنا
ولكن ما الذي زرعته انتَ
بساطير ثقيلة
يتنفس الحنون تحتها بألم

وتفر اليماماتُ مُطْلِقَةً بياض هدوئها غيماً ببرق احمر

الآن ..

الان عليك ان تنهض

فالوقت تاخر

وجثتك قد نضجتْ

***

شلومو على السرير .. نصل الخنجر تحرك في خاصرته ثانية فتلوى الماً .. واستقبل ضوء المصباح بوجهه .

الشوارع الآن امام عينيه تركض .. وتخلف الطعنة في جسده سكنا للالم ..

شباب صغار يعبرون باتجاه مدارسهم .. باتجاه يومهم البسيط .. وشلومو يحدق فيهم .. من يستطيع ان يرى السكين في جيب اي منهم .. ذلك الذي يضع يديه في داخل جيبيه ماذا يخبىء .. لا .. لن نمنحهم فرصة اشهار ايديهم .. «يصرخ» يقفز فزعا .. يطلق النار .. في كل الاتجاهات .. طا .. طا .. طا .. طا .. الآن في الموت كلهم عراة ونستطيع ان نعرف ما في جيوبهم .. طا .. طا .. طا .. طا ..

الممرضة تدفع باب الغرفة.. تدخل .. هيجان .. شلومو يتراجع .. يسقط في الزاوية متهدما . والممرضة تصرخ ..

***

النوافذ تروي الحكايات

البحري يغني :

لم ينمْ طائري
في سريرِ النعاس
ولم ينكسرْ
منذ عشرينَ عاماً والف قمر
ايقظ الوردَ في الذكرياتِ البعيدةِ
في صدر سيدةٍ ناحلهْ
والقى على وجهها حُلْمَهُ
فتورَّدَ سنبلةً .. سنبلهْ
لم ينمْ طائري

***

شلومو في الشوارع .

الحجارة تنهال على دوريته .. كلما مرت بموازاة ذلك الشارع الضيق

في مخيم الدهيشة . . كان ذلك قبل ان يتحول المخيم الى معتقل كبير .

طلبة المدارس والطالبات يذهبون الان الى مدارس معتقلة . . حيث المعلمون معتقلون . . والامهات يذهبن ليبتعن الخضار من بائع الخضروات المعتقل . . والبناؤون يمارسون عملهم بشيطنة فريدة . . اذ يرفعون البيوت داخل اسوار المعتقل . . لتصبح اعلى من المعتقل نفسه . . ويتركون للنوافذ مساحات واسعة . . ويبتسمون .

في حين كان الجنود موثقين على باب المخيم بعبوسهم .

***

رجل «للبحري» : عجيبة

البحري : ماذا؟

الرجل : هل لاحظت ان شبابيك بيوتنا واسعة هنا . . كأنها مُعَدَّةٌ لدخول الشمس بكامل استدارتها . . رغم كل هذه البنادق الجاهزة خلف الاسلاك . . هل لاحظت ان شبابيكهم ضيقة للغاية . . كأنها كوى قلاع قديمة طالعة من جثث الذكرى .

البحري : لعلنا الاكثر اطمئنانا . . رغم كل شيء .

الرجل : هل لاحظت ان مستعمراتهم تقبع خلف سياج محكم . . كأنهم يرفعون السجون حول ارواحهم ؟

البحري : لقد قال لي المحقق يوما عندما سألني عما اكرهه . قلت له يومها : لعل اول ما يحضرني هذا الحائط الشائك الذي يقبع مخيم الدهيشة خلفه . عندها سألني المحقق : هل مررت بواحدة من مستعمراتنا ؟ فقلت له : بأكثر من واحدة .

فقال : الم تلاحظ اننا وضعنا الاسلاك الشائكة ايضا حولها ؟

قلت : نعم

قال : هناك مثل شعبي عندكم يقول : من ساواك بنفسه ما ظلمك . . اترى نحن لم نظلمكم!!

***

كان شلومو يمر من هناك بدوريته الراجلة . . جنود يأتون هنا للمرة الاولى . . فتلتصق اجسادهم ببعضها . . ويملأون جانبي الشارع بنظراتهم السريعة وعيون بنادقهم الموقوتة .

لم يعد احد يعلم متى ينطلق الرصاص .

احيانا ينطلق حيث يكون الهدوء ناضجا كتمثال خزفي

لم يعد احد يعلم متى تنفجر الذكرى السوداء في جمجمة الجندي . . او متى سيفقد صوابه!!

دورية راجلة . . . رحلة يومية . . محاولة متكررة لتحقيق انصياع الاخر . . تنقلب في النهاية فجأة الى انتفاضة . . . وقد كانت جمعت بداياتها بهدوء امام اعين الجنود ، وخبأتها لايامها البيضاء .

***

مخيم الدهيشة : بحرٌ اليف يتكون من نعناع السطوح . . حبال الغسيل ، مهرجان الوان توحدت مع قوس قزح فاختفى الفرق بينهما . . . نوافذ تروي حكايات دائمة . . . واحاديث اليفة بين الظل وامتداده في الضوء وحلوله فيه ، هدهدة طائرة لأم تدعو طفلها لتأمل المشهد .

بحرٌ اليف من ملامح طيبة . . وخمس كتل خضراء داكنة يزيدها انعكاس سواد البنادق الملقاة على اكتافها سوادا . . ها هم الجنود .

فجأة تتساقط الحجارة متفرقة وتبعثرهم

ولكن كان ذلك قبل اعتقال مخيم الدهيشة

فيما بعد . . اصبحت قنبلة المولوتوف التي تنطلق على طريقة قذائف الهاون اكثر ملاءمة للوضع .

شلومو واربعة جنود يندفعون في الازقة وقرقعة اسلحتهم تختلط بفوضى غريبة مع اصوات خطواتهم المبعثرة . . .

ويعودون ثانية . . . ليجدوا ذلك الطفل البحري الصغير حيث كانوا . . يمشي على رصيف الشارع . كان صغيرا جدا . . . اصغر من تلك الحجارة التي اعتاد طلبة المدارس اطلاقها . . . حجارة موجهة مثل الطائرات الموجهة .

وقبل ان يراه الجنود يهتف مبتسما . . . مرحبا يا خواجا . . فتخرج هكذا : مَرْحَ بااا ، يااا ، خاواا جااا

ويحاذي الجنود ويسير...وهم يطردون اية فكرة حول امكانية قيام هذا الصغير بالقاء الحجارة .

في هذا الوهم تماما تَمَتْرَسَ نصل الخنجر وانطلق من على منصة الوهم تلك ، الى خصر شلومو .

شلومو بدأ يعرف ضحيته . . . ولكنه تعلم جيدا كيف يسد الطريق على انتفاضة روحها الاخيرة التي تطوح بظله بعيدا عنه .

***

شلومو قال لراكب الحافلة على الجسر مرة . . .

الم اقتلك في مظاهرة قبل عامين في مخيم الدهيشة

البحري : اظن ذلك . . . ولكنه لم يحدث في الدهيشة . . كان قبل ذلك بكثير!

شلومو : اين ؟

البحري : في كفر قاسم

شلومو : ولكنني لم اكن هناك

البحري : عجيب! ! يخلق من الشبه مليونين!

لا يا خواجا أنا من دير ياسين !!

شلومو يحدق في الصغير :

الم اقتلك ذات يوم في مخيم بلاطة

الطفل البحري يضحك : لا يا خواجا .. لا .. أنا من دير ياسين .

خرجت الكلمات ناعمة جدا .. ببراءة جرحت شلومو فهتف : مثل هذا الصوت يجب ان يكون لاطفالنا فقط .

وجاء صوت والده ، قال له : يا شلومو ... لقد اخطأنا خطأنا الكبير عام ١٩٤٨

سأل شلومو : كيف؟

الاب : كان يجب ان نقتلهم كلهم في تلك السنة .. تماما كما فعلنا في دير ياسين .

شلومو : الآن يفكر بالطريقة التي تسوقه بعيدا عن ذلك الخطأ .. يتلمس المدفع الرشاش في يده ... يتأمل الصغير ... يلقي نظرة حوله مرة ثانية ... ثم يصرخ مشهرا سلاحه في استدارة نصف كاملة ... «محاولة

جيدة لمباغتة الضحية»!!

ولكن الصغير لم يعد هنا

حجارة تتساقط على دورية متحركة في طولكرم ... ينتشر الجنود بين الازقة ... قرقعة اسلحتهم تختلط بفوضى غريبة ... اصوات خطواتهم المتبعثرة تشق الهدوء الذي هبط فجأة كغيمة : لا احد هنا. يعودون ثانية باتجاه السيارة ليجدوا ذلك الطفل الصغير مستندا الى حديدها ... وضاحكا ...

: مرح با!!! .. يا خاوا!! جا!!!

عندها يوشك عقل شلومو ان يطير .

يمسكه جندي من اذنه ... وعندما تفلت بسبب صغرها المبالغ فيه يمسكه من كتفه ... فتحلق اقدام الصغير في الهواء والجندي يصرخ : انت اذن ايها الشيطان .

كان الباب الخشبي يترنح بحركة خفية ... وهذا ساهم في التخفيف من حدة ارتطام اضلاع البحري الصغير بالباب ، عندما دفعه الجندي امامه داخل الباحة الصغيرة ... والجنود خلفه ... والناس الذين بعثتهم خطى الجنود حولهم .

ومن هناك استلوا ام الصغير من هداتها ... محاولين سوقها امامهم ... الا ان ازدياد عدد الناس جعلهم يقولون ...

عليك ان تحضري ومعك هذا الشيطان صباح غد الى مقر الحاكم العسكري ، ولكن شلومو الذي رأى الام اهتز برعب وسأل : ألمْ .. الم أرِك قبل سنوات على الجسر ؟ ... تذكرين البوابة الالكترونية .. تذكرينها اليس كذلك؟؟؟ والطفل ... هل هذا نفس الطفل؟؟؟ هو ...؟؟؟

أبتسمت ام البحري الصغير ..

فصرخ شلومو : هو اذن ... هو ... هو .

وغاب صوت شلومو واختفت اجساد الجنود وبنادقهم في بحر الناس المتدافعين .

***

قال الحاكم العسكري ـ مسؤول المخابرات ـ لشلومو ... ادخلوها مع ابنها فدخلت : كان الصغير قد اصبح اقل حجما بكثير واكثر براءة ... وبدا في ثيابه التي حشرته امه داخلها ... والتي اصبحت ضيقة منذ مدة طويلة بدا اكثر طفولة من مولود عار مقلوب يتلقى الصفعة الشهيرة على قفاه .

الحاكم : لماذا لم تحضري ابنك ؟؟

الام : لقد احضرته

الحاكم : واين هو ؟

الام : انه هذا .

في حين حرك الصغير رأسه الى الاسفل والاعلى اربع مرات واغمض عينيه متصنعا البراءة الكاملة .

الحاكم : هل هذا هو ابنك ؟

الام : نعم ... وليس لدي غيره .

صرخ بأعلى صوته .. اطل شلومو فسأله : هل هو نفس الولد الذي تتحدثون عنه ؟؟

شلومو : نعم

صرخ الحاكم العسكري ثانية : «مهزلة»

واكمل «انصرفوا»

لنفسه : اي حصاد من الخيبة هذا الذي نجنيه ... اين يمكن ان ارسل شلومو الان ؟ اي جنود هؤلاء الذين احارب بهم اناس عزلا ويعودون لي بالهزيمة .

غادر الجميع مكتبه. وعاد صوته « مهزلة ... مهزلة ... »

في حين نظـر الصغير خـارج المكتب الى شلومـو من طرف عينيـه ... واخرج لسانه وابتسم .

الصعود الى الجليل

اضواء متناثرة ... ظلال جبال عالية ... كل ذلك يوحي بشمس تملأ العالم حنطة ... صوت المغني يجيء من اعماق الروح رخيما ... يقطع المسافات بين المدن ململما كل الطيبة التي يمر بها ... جامعا الاشجار والطيور والعشب النابت بين شقوق الصخر ، وزعتر التلال ... يمر الصوت عبر رام الله ... القدس ... نابلس ،جباليا ، طولكرم ، جنين ويصعد للناصرة ... عكا ... قمم الجليل ... وخضرة الكرمل المائلة الى ازرقاق الموج . ويعبر الصوت طيبا . كلما مر بشجرة سارت خلفه ، وكلما مر بمهر صهل ومضى معه ...

والبحري يدعو الصباح بكل دمه ، ينتشر الصوت اكثر ويتسع ، وترتفع وتيرة الاغنية شيئا فشيئا مع بدء حركة الناس التي تدب في الشوارع وتنساب بعذوبة جداول جبلية .

البحري «يغني»

هي يا صُبخ

هذا الجليلِ بطلعتُهُ
انهارْ سُكّرْ تنذبحْ
بالليل والعسكر
وسكينِ آلملح
هي يا صُبح ..
هم اجوا من موتْهُمْ لموتهم
واحنا نْهزُّ جراحنا
ينوِّر على التلة البَلخْ
هي يا صبح

- - -

يا خطوةِ الطفلِ اللي طالعْ من بيوتِ الطينْ
يُرسُمْ ارز لبنان ع كفهُ
ويحفظْ فلسطين
زيَّ النشيدِ ووجه جدهُ والحنينْ
هي يا صبح
ارض الجليل بتطلع من الموت تتحدى
وبتطلع من الليلْ تتحدى
وتطلعْ من جْرُوحِ الشهيدِ
اللي على تلالِ البلدْ
تِسهرْ وتتندى
هذا الندى دمع السما؟
والاّ مَطرْنا آللي انهمر
لما شِبلْ
عبا جنابهُ بالبارودِ وفجرِ الموتْ ... وآنفجر
هي يا صبح

***

وذات اجنحة من العشب والالفة . . رياحين في الشرفات ، نساء يغزلن الحكايات واحلام الليلة الماضية ، فلاحون يرتدون الاشجار كاشعة تهبط من بين غيمتين ، جبال لا تكلّ الصعود ، وحقول كلما نظرت اليها ازدادت اتساعا .

ها هو الجليل

كاملا مثل روح تتلمس جسدها .

الاندفاع باتجاه الأغنية

المشهد ... قرية كفر كنا ... مساءً ... العمال يعودون ... والفلاحون يجمعون خطاهم وخضرة الحقول بادية عليهم ... الذين سبقوهم يجلسون امام المحلات التجارية الصغيرة على طرفي الشارع المؤدي الى قرية الرينة ثم الى الناصرة .

شيخ : طَمِّنّي يا ابا محمد ... كيف الزرع ؟

ابو محمد : هذا العام عام خير .

الشيخ : انت تعرف يجب ان يحسب الانسان لكل شيء ..

ابو محمد : لا تخف هذه ارضي وانا اعرفها ... هل ستأتي لحفلة اليوم ؟

الشيخ : سأتي ... سأتي بالطبع .

***

الشمس تميل مخلِّفةً وقع وهجها الذي انتشر طوال اليوم ... نيسان

كامل هذه السنة ... ويفيض عن ايامه ... فيتشابك زهره مع الايام. من رام الله جاءت الفرقة لتغني .

الناس يتجمهرون امام بوابة المدرسة الخارجية .. تسود همهمة بينهم. شيخ ما الذي يحدث ؟

صوت شلومو : بأمر من القائد العسكري لمنطقة الشمال ...

الشيخ : اسمعوا يا جماعة ... اسمعوا ما الذي جاء لنا به هذه المرة .

***

فرقة فنية ومرشد يطوفون في ارجاء «كُفر كنّا»

المرشد : من شباب حركة يوم الارض : بقي لنا نصف ساعة .. سنعود بعدها الى ساحة المدرسة ... كل شيء سيكون جاهزاً ... اعددنا مسرحا بسيطا ... تحتاجون نصف ساعة اخرى لتجهيز انفسكم .

الاغنيات جاهزة من الممكن أن نبدأ فورا ، هكذا قال احد اعضاء الفرقة .

المرشد : وهناك خبر مفرح ... اذ تنتهي اليوم الاقامة الجبرية المفروضة على فناننا الشعبي «البحري» وسيغني بعد صمت دام ستة اشهر .

***

الناس تتدافع باتجاه الاغنية ... تنبع من الحارات وشرفات المنازل ... وغبار الحقول العالق بثياب المزارعين ... بعضهم توجه الى الاغنية قبل ان يتوجه الى بيته ...

القرية الان امام المدرسة .

ام محمد : ما هذه الفوضى ؟

شاب : هناك جندي يا ام محمد .

ام محمد : هناك حصار اذن .

شلومو بين الناس يقرأ بصوت مرتفع وحوله عدد من الجنود : بأمر من قائد قوات الشمال يمنع اقامة الامسية في ساحة المدرسة باعتبارها ملكا عاما لا يسمح باستغلاله لاقامة حفلات فنية او سواها .

استياء يحتل وجوه الناس .

شلومو : وهناك امر آخر ..

الناس يصمتون .

كما قرر القائد العسكري لمنطقة الشمال عدم السماح للمغني «البحري» بالغناء لمدة شهراعتباراً من صباح هذا اليوم السبت .

الهمهمة تتعالى ... استياء كامل .

***

بعض الشباب يشقون طريقهم عبر الجمع ... يتبادلون كلمات قليلة ، ثم ينتشرون في انحاء القرية .

احدهم : يجب ان يتم ذلك بسرعة .

الآخرون : ولا يهمك .

***

المرشد والفرقة الفنية امام نصب كبير ... الغروب الآن يكتمل فيملأ الافق دم ارجواني .

المرشد : نحن الآن امام نصب لشهداء صبرا وشاتيلا ... «المرشد يواصل» ولهذا النصب قصة .

***

في مقر قيادة قوات الشمال القائد يخاطب «البحري» : انني احذركم ... اذا ما حاولتم بناء النصب فاننا سنقوم بنسف مئة وخمسين منزلا من منازل القرية .

هذا قراري ... ويجب ان تفهموا معناه جيدا .

***

شباب حركة يوم الارض مع بعض رجال القرية وفتياتها ... بينهم البحري وام محمد تلك التي تطالعك دائما كراية فلسطينية لا تقبل الانحناء .

البحري : هذا قرارهم .

ام محمد : ونحن لا نستطيع ان نقوم ببناء نصب للشهداء ودوريات الجنود تملأ القرية .

البحري : والحل ؟

احد الشباب : يوم الغفران!!!

حطت ابتسامة واثقة على وجوه الموجودين وسرت في بقية اجسادهم كرفيف اجنحة عصفور .

الفرصة مهيأة لنمو الأزهار

اليوم ... يوم الغفران ... الجنود غائبون والفرصة مهيأة لنمو الازهار والنعناع ، والريحان المتماوج فوق السطوح . لا جنود ... ولا اسلحة ... كل شيء مطمئن وبسيط ... وخارج مدى الرصاص .

***

مجموعة الشباب التي غادرت الجمع تلتقي في ساحة معمل للطوب ، اسلاك كهربائية ... لمبات ... وسيارة تتوقف محملة بالاخشاب .

هنا سيكون الغناء... يندفعون... يبعدون الطوب المرصوص... والاجزاء المحطمة منه جانبا ... ويبدأ العمل.

ترتفع جدران صغيرة ... لا تلبث ان تلتقي مُشَكِّلَةً مستطيلا .. الاخشاب تغطيه ... يندفع احدهم : لقد نسينا الدرجات ...

الدرجات الآن تصعد الى المنصة .. سيارة تحضر بداخلها كراس .

يبتسم الشباب .

احدهم : لقد تم كل شيء بأسرع مما تصورنا .

آخر : ليذهب احدكم وليخبر الناس ان الامسية ستكون في معمل الطوب!

***

نصب الشهداء يرتفع بين ايدي الشباب ... يرتفع وباتقان ... كأن الوقت كله لهم ... يرتفع والشمس تشق طريقها اليومي تشرق الآن .

البحري : لقد تم كل شيء ... فليهدموا غدا ١٥٠ منزلا .. ليفعلوها ... أو فليهدموا النصب .

ام محمد «التي كانت طوال الوقت تستحثهم وتحضر الماء اللازم للبناء على رأسها» : قبل ان يفعلوها عليهم ان يتذكروا ايام الارض .

البحري : لا اظنهم يستطيعون عمل شيء الان .

***

أحد الشباب قادم من بعيد ، الانظار تتجه اليه ... «يصل» : بعد انتهاء الجولة اذهبوا الى ساحة معمل الطوب الامسية ستكون هناك .

ينحدرعائداً للجهة التي بزغ منها .

المرشد : لا بد ان شيئا قد حدث ... ولكن لا عليكم .

***

القرية تتوافد على معمل الطوب . المجاورون للمعمل حملوا كراسيهم من بيوتهم معهم .

الفرقة تستعد .

***

امام النصب .

احد الشباب : لقد جاء النصب اجمل بكثير مما رسمناه على الورق .

ام محمد : يعطيكم العافية .

***

الجمهور يصفق .

الفرقة تبدأ الغناء .

عَلِّمونا كيف نصنعْ
من ظلامِ الليلِ شعلةْ
علمونا كيف نجني
من جراحِ القلب فُلَّهْ
علمونا كيف يغدو
قلبُنا للارض ازهاراً
وفوق الجرح قُبلهْ
علمونا كيف نصنع
من دموعِ اليأس زيتاً للمشاعلْ
كيف نجعلْ
نبضة القلب قنابلْ
علمونا كيف نأكلْ
خبزنا بالدمِّ مغموساً لنحيا
لا لنحيا
بل لكي نبقى نُقاتلْ

البحري على شاطئ عكا

«البحري» على شاطىء البحـر ... هنا تلتقي مـدن السـاحـل .. هنـا تسكن ... هنا ترتفع في موجة طيبة وتقبل رمل عكا ..

صـوت الموج مـوسيقى الزرقـة العميقة ... والبحـري المقيد بـالاوامر العسكرية ... طليق في رنة العود والاغنية .

عكا فرسْ من موجْ عاشط البحرْ
موالْ ازرقْ ميجانا
آتغنيه يخضرُ الشُجرْ
عكا رُمحْ للبر بيردِ الخطر
عن ورده عن شباك ... عن ذكرى وصورْ
عكا فرسْ
عكا اسم للطير والافراخ
وعيون الصقرْ
وامواجْ بريَّة ومطرْ
عكا اغاني .. ودالية تطرح عِنبْ

تطرحْ شعرْ
ونسور بترفرف على مدًّ البصر
عكا فرس
بقول يا عكا
وبفرشْ ها العُمرْ
عا عتابْ شَطِكْ ميجنا
إنتِ أنا
وانتِ مرايةْ لما نوقفْ صوبها
بنشوف لون العزً ريحةْ هالزهر
وبنشوف صوت الناي وماخبا الصدر
ونقرا سوى سيرة وطن
سيرةْ شعب
سيرة حصار وعسكر

ابنقرا سطرْ يتلو سطر
كيف اللي عمرهُ ما انكسر
بوابكِ الخضره انكسر
كيف اللي حاصر او دخل
لبيوتِك البيضهْ رحل
وانتِ بقيتي زي ها الموج ومثل نور الفجر
عكا كانك للعدى من قبل ما يكون المدى كنتِ قَدَرْ
ومن يومها صرتي كلام الناس
وكتاب البشر

عشاق الموجة

البحـري في بيته يغني ... السجن ... الاسـلاك الشائكـة ، ورام الله تتفتح كزهرة جبلية وسط ضباب الصباح .

والبحري يغني : ومن يومها صرتي كلام الناس وكتاب البشر .

فتضرب موجة جدران البيت ، يعبـر صوتهـا ... يمتلىء صدره بنشـوة غامرة وشوق للاندفاع نحوها . يشرع الباب ... تتجلى الموجة!!

عاليةً كنتِ هناكَ على الشاطىء
والبحرُ سريرٌ من اجنحةٍ لا تهدأْ
عاليةً كنتِ...
دمي ملتهبٌ
اضلاعي تتقافزُ
صوتي مرتعشٌ
وجيادي في الداخل تصهلُ
عاليةً كنتِ
نداءً سرياً ينسابُ الى روحي

اتبعهُ ماخوذاً بالازرقِ
ماخوذاً بهضابِ الماء
كانَّ الناسُ خطىً تتقاطعُ فوقَ الرملِ بلا اسماء
والاصدافُ رئاتُ الريحِ
وريشُ طيورٍ خرساء
عاليةً كنتِ
كانَّ جهات الارض اجتمعتْ فيكِ
كانك روحي تتجلى
وذهولي الطفل
كأنكِ ما بعدَ البرِّ
وبعدَ البحرِ
وبعدَ الغامض في الاشياء
وكان الناسُ خطى تتقاطعُ
فوقَ الرملِ بلا اسماء
عاليةً كنتِ
دخلنا الأُلفةَ في لحظاتٍ
حينَ مددتِ يداً نحوي
فانبسطَ الازرقُ شوقا
واتقدتْ في القلبِ مجاعةُ قلبي
للأعراسِ المهجورة
للحنطةِ ... لوجوهِ الشهداء
ناديتُكِ : يا امي ... ناديتُ
اندفعتْ كلُّ ظباءِ العالمِ ظماى فيَّ
عدوتُ اليكِ
عدوتُ
عدوتُ
عدوتُ كسهمٍ مِنْ اشلاء!!

في هذه اللحظة ينطلق البحري باتجاه الموجة التي تجيء عالية . . . لتجتاح السجن . . لتصبح اكثر رقة كلما اقترب منها . . . يندفع يركض . . . وفجأة ينتصب شلومو مشهرا سلاحه حائلا بين وصول البحري للموجة .

رصاص باتجاه البحري . . . بحريون كثيرون يخرجون من مخيم جباليا . . . تتقد في شلومو شهوة الدم . . . الآن يستطيع ان يحصدهم كلهم . .

وفجأة يبزغ بحريون في مظاهرة من خلفه . . . من مخيم بلاطة . . . وثالثة من ام الفحم . . . ورابعة من الناصرة . . .

شلومو يرتبك . . . فجأة يلقي سلاحه ويبدأ بالبكاء . .

البحريون يتقدمون من كل الجهات .

***

تل ابيب ... مظاهرة كبرى .. ترفع شعاراً .. السلام الان ! والد شلومو في مقدمة المظاهرة !!! .

مدى المقلاع

الحاكم العسكري يحل طوق الكلب «رامبو» الذي يندفع هائجاً في حركة مجنونة يزيد من وضوحها وقوع المشهد في اطار من التصوير البطيء ... عضلات الكلب ترتج ... زبد يتطاير من بين انيابه ... مخالب يتناثر تحتها رصيف الشارع ... الكلب يجتاح مدنا ويبدو للحظة وكأنه اصبح محلقا ... في حين تتوالى مشاهد مختلفة من المدن ... والناس «هنا يختفي صوت مخالب الكلب»

● امرأة تنشر غسيلها .. طفلة ترتب كتبها المدرسية .. وتنشد بمرح :

«انا الارض التي تزهر
انا غزة
انا الزعتر ..»

يختفي الصوت . . . ليعود الايقاع المعدني لاصطكاك مخالب الكلب ولهاثه المحموم لاحتلال الخلفية . .

● فلاحة تبذر العلف لدجاجة تتبعها صيصانها .

● بائع متجول يناول صغيرا قطعة من الحلوى . . . الصغير يبدأ بالتهامها فورا .

● فتى وفتاة يعبران احد الشوارع الخالية . . . تميل عليه بسرعة خاطفة وتقبله . . . يتورد وجهه . . . وتضحك هي . . .

● مولود صغير في يد «القابلة» «ام محمد» يبكي . . . وجه القابلة ينفرج عن ابتسامة طيبة . . ملامح الأم تستعيد براءتها . . . في حين يندفع عشرة اطفال نحو الغرفة هم ابناؤها «يختفي هنا صوت مخالب الكلب ولهاثه» ويأتي صوت القابلة واثقا : اجتكم مهرة!

الصغار يبتهجون . . .

يعود صوت الكلب لاحتلال الخلفية الصوتية . . . وهنا يظهر للحظة وقد تعثر بشيء واوشك على السقوط . . . الا انه يعاود اندفاعه .

● فلاحة في علية بيتها القروي تخيط ثوبا ... تتوقف.. تنظر الى حمامة بيضاء فوق حافة السطح العشبي ... تعود لتغرس الابرة في حلكة القماش ، فنرى حمامة خضراء .

كل ما في المشهد يوحي انها تنقل الحمامة من فوق السطح الى الثوب .

● يعود الكلب لاحتلال المشهد ... ويتعالى لهاثه اكثر فاكثر ... يقترب في مشهد يكبر تدريجياً حتى يكاد يخرج من اطار شاشة سينمائية .

● جنرال يعبر الشارع بجنوده ...

● طفل صغير فوق احدى السطوح ... يبول بمرح ..

● الكلب يشق الشاشة ليخرج باتجاه خليط المشاهد الطيبة السابقة ... نباح مجنون ... يبدأ بالتهام الناس .

● حصان يصهل ... ينفض غرته ... ابيض ... يبدأ انطلاقه.. تتقاطع صورة الكلب رامبو والحصان .. ليسفر المشهد عن بقاء الحصان وحده .

● جندي يسقط بطعنة خاطفة .

● سيارة عسكرية تحترق ...

● حجارة تتساقط على دورية .

● جنود يملأون الشوارع .. هروات .. بنادق رشاشة .

● صوت الاذاعة الاسرائيلية يعتبر المخيم والقرية والمدينة السالفة الذكر مناطق عسكرية مغلقة ويمنع التجول حتى اشعار آخر .

● الكلب رامبو يظهر ثانية .

***

مشاهد متتابعة داخل بيوت كثيرة ... صوت المذياع يطلق خبر منع التجول ... تدب الحركة بين اضلاع البيوت وكان الناس يسمعون الخبر من مذياع واحد .

● المذياع ... «وكل من يغادر بيته سوف يتعرض الى اقسى الاجراءات» .

● في داخل البيوت ... كل واحد يعتقد انه اذا خرج سيكون الوحيد في الشارع ... لذا نرى حركة مضطربة لاناس اشبه ما يكونون بطيور تضرب الاقفاص باجنحتها حيث يطفو على حركات الناس حس عميق بضرورة التحليق ... يأتي صوت صهيل من الخارج ... صوت موج غاضب فيكون بمثابة دعوة للخروج ويمر حصان جامح عبر الشوارع المليئة بالجنود كطيف ...

● ابواب تنشق ... نوافذ ... رؤوس تطل من شارع طويل ... نلمح ام محمد ، البحري ، ام البحري الصغير ، البحري الصغير ، المرشد .. وجوه تتوالى .

فجأة الناس الان وجها لوجه ... والشارع مزيج من شوارع كثيرة للمدن المحتلة

● النـاس يندفعـون الى خارج البيـوت ، السطوح ... في حـركـة واحـدة مشـاهد من الناصرة ... عكـا ... الجليل ... القـدس ... نابلس ، بـلاطـة ، الخليل ... الجلزون ، تتقاطع المشـاهد لتمنـح الهتاف المنطلق من الجميـع جلالاً مقدسا .

● جنود يندفعون في سياراتهم العسكرية والمدنية .. مشاهد ملتهبة .

● مواجهات دامية في بلاطة .. شهداء .. جرحى .. رصاص ...

● تراجع .. يطلق النار الى صدور المتظاهرين مباشرة..

● قناص يفجر رأس شاب يحمل العلم الفلسطيني .. والمظاهرة تتقدم .

● قنابل جارقة على القنصلية الامريكية في القدس .

● اقتحـام مستشفى ... اعتقالات ... شـاب فلسطيني قذف قنبلـة مسيلة للدموع باتجاه الاسرائيليين .

● اعلام فلسطينية فوق اعمدة الهاتف والكهرباء .

● دورات متتالية لليل والنهار ... والارض تلتهب .

● اندفاع جديد للقوات الصهيونية .

● طـائرات مـروحية تلقي قنـابل مسيلـة للدمـوع ... وتطلق النار بـاتجاه المتظاهرين .

● احد المتظاهرين يصوب مقلاعه باتجاه الطائرة .

هناك قتلى فالجنود يعملون باخلاص

مبنى واسع يتوافد عليه مسؤولون اسرائيليون.. حراسات.. في الداخل قاعة واسعة ... وطاولة مستديرة ... عبوس كامل .. شامير.. شارون ... بيريز ... الحاكم العسكري للضفة الغربية ، صحفيون ... اعضاء كنيست ... شلومو ، رامبو ، ايتان .. رئيس اركان الجيش.. الوجوه واجمة في بحر من الصخب .. «صمت» .

- اظن ان علينا اصدار امر لجنودنا بقتل اي عربي يعثر بحوزته على سكين .

- ان قتل ٥٠ عربياً دفعة واحدة يحفظ الهدوء ثلاثين عاماً!!

***

جنود صهاينة ... مظاهرة .. شاب فلسطيني يكشف عن صدره امام جندي .. يصرخ بالجندي : هيا اطلق النار .

طلقات متتابعة تشق صدر الشاب ...

آخرون يشرعون صدورهم .

***

القاعة

– العرب يخطئون احيانا في تفسير «الديموقراطية الاسرائيلية» .

– علينا ان نعترف ان الجهات السياسية زرعت الريح في الاراضي المحتلة وان القوات العسكرية هي التي تجني الان العاصفة .

***

قيادة عسكرية ... ضباط اسرائيليون كبار... محاكمة لاحد الضباط ..

القائد العسكري : لقد قررت قيادة المنطقة الوسطى تجميد الضابط دان عميرام بسبب عدم تشديده على اوامر اطلاق النار في مواجهة المظاهرات .

***

طلعات متتالية لطائرات مروحية فوق المدن المحتلة ... على الارض : الفلسطينيون اطفالا ونساء ... شبابا يدلقون المياه على القنابل المسيلة للدموع .

***

جنود اسرائيليون يستخدمون المعتقلين الفلسطينيين كحواجـز مضادة للحجـارة لحمـايـة انفسهم وسيـاراتهم في حين يصـوب الجنـود مـدافعهم الرشاشة ويطلقون الرصاص ...

***

القاعة

– ان الحقيقة التي تظهرها استطلاعات الرأي العام تبين اننا نعمل كلنا في مـوقع واحـد : ان الحمائم والصقـور يؤيدون تـرحيل العـرب ، كمـا ان الحمـائم والصقور يـرفضون اعطـاء الفلسطينيين حقوقـا كاملـة في داخـل الدولة

– ان صورة اسرائيل اصبحت سوداء الآن في اعين العالم .

– علينا ان نسحب قواتنا من المدن والتجمعات السكانية .

– اعتقد ان المطلوب تعزيز هذه القوات .

– ان المسألة تعدت مناطق القدس ونابلس ورام الله. اننا في ذهول تام الآن ونحن نرى يافا والناصرة وحيفا والخليل يعلنون العصيان ايضا .

– ايها السادة ان ما سأقوله مختلف قليـلا ... لذا دعـوني اتساءل مـا الذي يحدث الآن ؟ ان ما نتجاوزه يعود ويتجاوزنـا من جديـد ... نحن طوال اربعين عاما لم نستطع ان نطوي صفحة واحدة .. فمذبحة دير ياسين تعـود ثانية .. تقفز فاذا بها امامنا ... ومعارك ١٩٤٨ نعود ونخوضهـا من جديـد ، كفر قاسم ١٩٥٦ ، صبـرا وشاتيـلا .. بيروت ، اكـاد اجن ايها السـادة ... نحن لا نستطيـع تصفية حسابنا مـع الماضـي ... كـأن كل معـاركنـا التي خضناها وهم ليس الا

– ها نحن نسلح الجنود وندفع بهم مدججين بكل انواع الاسلحة ... ونرى الذعر يسيطر عليهم .

– ايها السادة نحن نفقد السيطرة على مناطق في قبضتنا . وما داموا يتحدون سلطتنا فان المذابح ستستمر ...

هنا تبدأ الملامح بالتداخل ... تختفي لنرى كل من في القاعة لهم ملامح واحدة : شارون .

شارون ١ : يجب التصريح لقوات الامن باطلاق الرصاص الحقيقي ...

شارون ٢ : كما يجب اعطاء الضوء الاخضر للجنرالات الذين يتولون قيادة المناطق لاعتقال وابعاد العناصر المتمردة .

شارون٣ : ايها السادة ان مثل هذه الاجراءات تنبع من حقيقة ديموقراطية ... ان غالبية الشعب لدينا تطالبنا باتخاذ اجراءات اكثر شدة .

شارون ٤ : الان علينا ان ندرك ان من يقول ان البيض يضطهدون السود في جنوب افريقيا هو كاذب . نحن ايضاً اقلية بيضاء هنا .

شارون ٥ : الحل يكمن في اعتقادي بارسال ناقلات مليئة بالجنود ... لقد سبق «لديان» ان ارسل الدبابات الى نابلس .

شارون ٦ : ان العرب صراصير في زجاجة ليس الا ...

شارون ٧ : ان عدد القتلى المتزايد خصوصاً بين النساء والاطفال يمنحني طمأنينة خاصة جوهرها ان جنودنا يعملون هناك بكامل اخلاصهم .

شارون ٨ : اعتقد انه لا يوجد الرصاص الكافي في يد الجنود!!

شارون ٩ : ان استخدام الاعيرة النارية الحية .. لم يعد يجدي كثيراً ... بل استطيع القول ان ذلك افقد جنودنا وسيلة الرعب ... فبماذا يمكن ان نخيف المتظاهرين الآن ؟

***

معارك شرسة في كل انحاء الوطن المحتل .

مشهد شاب يشرع صدره ويدعو الجندي لاطلاق النار ...

اعادة المشهد .

***

القاعة من جديد ، شارون ١ يقف :

لقد تدارسنا الموقف جيداً ... ورأينا ان الحل الوحيد يكمن في اعادة احتلال المدن المحتلة !!

«تصفيق» يختلط تدريجيا مع اصوات جنازير الدبابات واصوات الطائرات المروحية والمقاتلة والانفجارات .

«ايلول ـ تشرين الثاني ١٩٨٧»

الفهرس

إبراهيم نصرالله

- من مواليد عمّان عام 1954 من أبوين فلسطينيين اقتُلِعا من أرضهما عام 1948 ، درس في مدارس وكالة الغوث (مخيم الوحدات) ، وأكمل دراسته في معهد المعلمين التابع للوكالة .
- عمل مدرّسا لمدة عامين في المملكة العربية السعودية 76-78 .
- عمل في الصحافة الأردنية من عام 78-96 .
- يعمل الآن مسؤولا عن النشاطات الثقافية ـ دارة الفنون ـ مؤسسة عبد الحميد شومان ومستشارا ثقافيا للمؤسسة .
- صدر له
- شعراً : (الطبعات الأولى)

• الخيول على مشارف المدينة ـ دار الشروق ـ عمان ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت • المطر في الداخل ـ الشروق ، المؤسسة العربية • الحوار الأخير قبل مقتل العصفور بدقائق ـ الشروق • نعمان يسترد لونه ـ المؤسسة العربية • الفتى النهر والجنرال ـ الشروق • عواصف القلب ـ الشروق • حطب أخضر ـ الشروق • فضيحة الثعلب ـ الشروق • الأعمال الشعرية ـ مجلد ، المؤسسة العربية • شرفات الخريف ـ المؤسسة العربية • كتاب الموت والموتى ـ المؤسسة العربية .

- روايةً : (الطبعات الأولى)
- براري الحمى ـ الشروق ، مؤسسة الأبحاث العربية 85 . عَــو ـ الشروق 90. كتاب : الأمواج البرية ـ القدس 88 .مجرد 2 فقط ـ الشروق92 .طيور الحذر ـ دار الآداب 96 .حارس المدينة الضائعة ـ المؤسسة العربية 98 .
- كتب للأطفال : صباح الخير يا أطفال . أشياء طيبة نسميها الوطن .
- شارك في المعرض التشكيلي (كتّاب يرسمون) وأقام معرضا فوتوغرافيا في دارة الفنون ـ مؤسسة شومان عام 1995 بعنوان (مشاهد من سيرة عين)
- ترجمت براري الحمى إلى الإنجليزية ، والخوار الأخير إلى الألمانية ، ونشرت مختارات من قصائده بالإنجليزية ، الروسية ، البولندية ، التركية ، الفرنسية.
- نال سبع جوائز عن أعماله الشعرية والروائية ، من بينها :

جائزة عرار الأدبية عن أعماله الشعرية 1991

جائزة تيسير سبول عن أعماله الروائية 1994

جائزة سلطان العويس للشعر العربي 1997

الأمواج البرّية

(الأمواج البرية) سعي لتقديم شكل فني جديد : سرد روائي ، حوار مسرحي، روح شعرية، ولغة سينمائية منحته طاقة إنسانية مفعمة بروح متألقة. ويحسب لنصرالله هنا أنه دفع القارىء للمشاركة الممتعة الفاعلة للقيام بدور المخرج السينمائي لهذا العمل.

يغرف الأمواج البرية من تقنيات الفنون، ويجترىء على الأجناس الأدبية متجاوزا الحدود التقليدية للكتابة، ليكون بذلك من النصوص الأدبية التي تنتج أدوات نقدها الجديدة.

والأمواج البرية غني مكانياً، حيث يلعب المكان (فلسطين المحتلة) بمدنها وقراها ومخيماتها دور البطولة المتحققة بالعلاقة بين الإنسان والمكان الذي يعيش عليه ويكافح من أجل إزالة ما لوثه وشوهه، ألا وهو الإحتلال.

كتاب يبدأ بالحياة لينتهي فيها، لذا لم يكن غريباً أنه تلمس الإنتفاضة واستشرفها .

من مقدمة طبعة القدس 89

حرية الكلمة
منشورات 99
المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت، ساقية الجنزير، بناية برج الكارلتون، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي: موكيالي
هاتفاكس: ٨٠٧٩٠٠ / ٨٠٧٩٠١